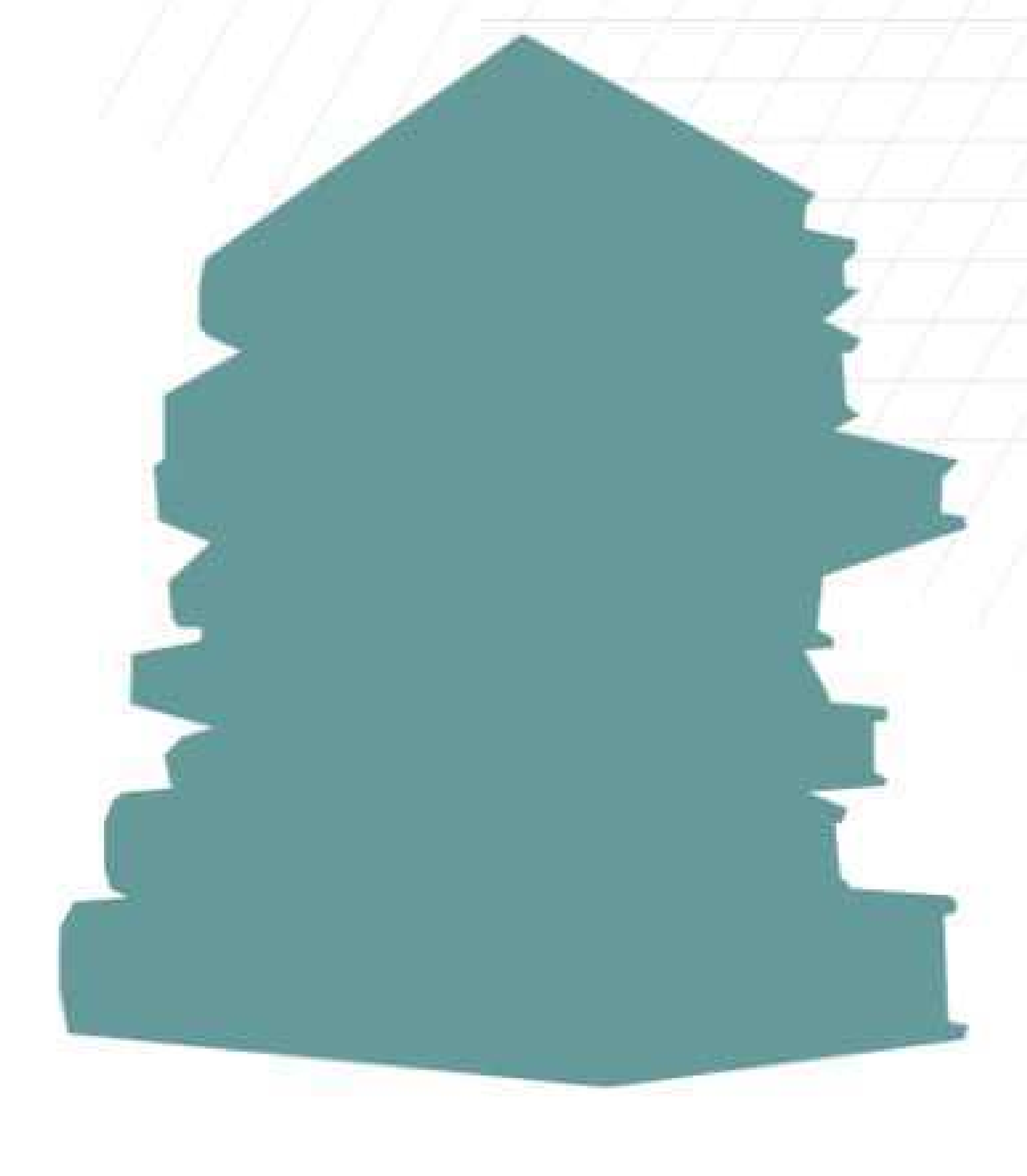
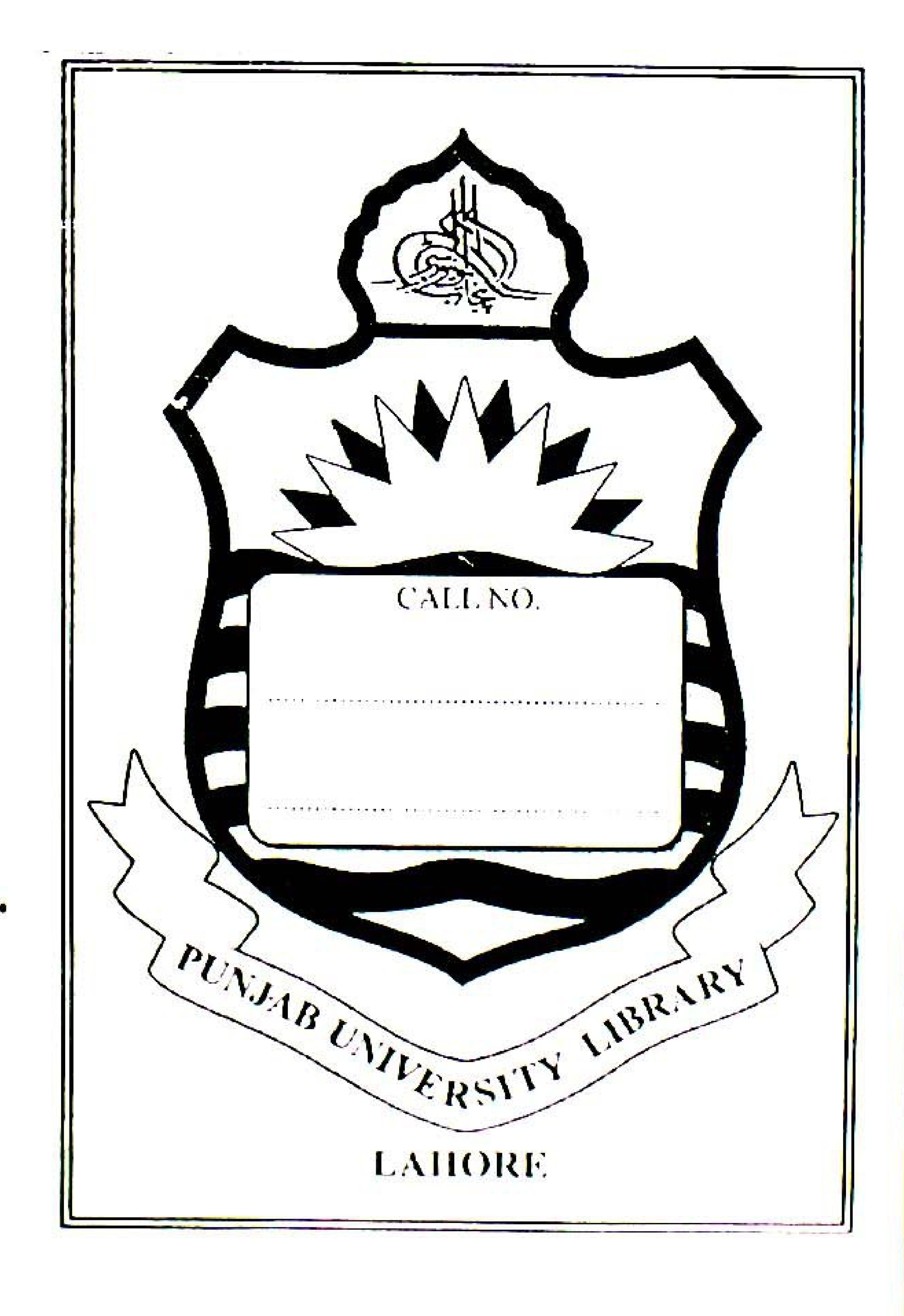


تأييد الحقيقة العلية
وتشييد الطريقة الشاذلية
للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
المتوفى ٩١١ هـ
ويليه
رسالتان للشيخ مصطفى البكري
المتوفى ١١٦٢ هـ
الرسالة الأولى:
المورد العذب لذوي الورود
في كشف معنى وحدة الوجود
الرسالة الثانية:
صادحة الأزل
تحقيق وتخريج وتعليق
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي
DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان




CALL NO.
PUNJAB UNIVERSITY LIBRARY
LAHORE

تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية

للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي
المتوفى ٩١١ هـ

ويليه

رسالتان للشيخ مصطفى البكري

المتوفى ١١٦٢ هـ

الرسالة الأولى:

المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود

الرسالة الثانية:

صادحة الأزل

تحقيق وتخريج وتعليق
الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

DKI
دار الكتب العلمية
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971
بيروت - لبنان

Title: Ta'yīd al-ḥaqīqah al-'aliyah
followed by: **kašf ma'nā Waḥdat al-Wujūd**
followed by: **Ṣādiḥat al-'azal**

Author: Jalāluddīn al-Sayūṭī
and: Muṣṭafā al-Bakrī

Editor: Dr. ʿĀṣim Ibrāhīm Al-kayālī

Publisher: Dar Al-kotob Al-Ilmiyah

Pages: 136

Year: 2006

Printed in: Lebanon

Edition: 1st

الكتاب: تأييد الحقيقة العلية
وتشييد الطريقة الشاذلية
ويليه : رسالتان للشيخ مصطفى البكري

المؤلف: جلال الدين السيوطي
و: مصطفى البكري

المحقق: الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت

عدد الصفحات: 136

سنة الطباعة: 2006 م

بلد الطباعة: لبنان

الطبعة: الأولى



ISBN 2-7451-4664-5

منشورات محمد علي بيضون



دار الكتب العلمية بيروت لبنان

الطبعة الأولى
٢٠٠٦ م ـ ١٤٢٧ هـ

منشورات محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

Mohamad Ali Baydoun Publications Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah

الإدارة: رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
Ramel Al-Zarif, Bohtory Str., Melkart Bldg., 1st Floor
هاتف وفاكس: ٣٦٤٣٩٨ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١+)

فرع عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
Aramoun Branch - Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
هاتف: ١٢ / ١١ / ٨١١٨١٠ ٥ ٩٦١+ ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت - لبنان
فاكس: ٨١١٨١٣ ٥ ٩٦١+ رياض الصلح - بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

http://www.al-ilmiyah.com
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com



تقديم

بسم الله القائم بذاته العليّة، والمحيط بصفاته الجليّة، والمتجلّي بأسمائه الكلية، والظاهر بأفعاله الاختيارية، والباطن بما لا يعلمه إلا هو، والأول في الوجود بأزليته، والآخر في الشهود بأبديته.

والحمد للّه الغني عن كل ما سواه، والمفتقر إليه كل ما عداه، واجب الوجود وما سواه مفقود، «كان ولم يكن شيء غيره» وهو الآن على ما عليه كان، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] و﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣] من حيث ذاته، و﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] من حيث تجليات أسمائه وصفاته.

وصلّى الله على سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، والمؤيَّد بحقائق الدين، الكامل بما فيه من أحكام ملكية تقوِّم السلوك وتزكِّي النفس، وأنوار ملكوتية تطهِّر القلب، وأسرار جبروتية ترقي الروح.

وبعد؛ ففي إطار نشر كتب التصوُّف الإسلامي الشارحة لمقام الإحسان الركن؛ الثالث من أركان الدين الكامل بعد ركني الإسلام والإيمان والتي نقوم بتحقيقها وتنقيحها وضبطها وتصحيحها والتعليق عليها، نقدِّم للقراء الكرام مصدراً من مصادر التصوُّف الإسلامي هو «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية» للإمام الحافظ الشيخ أبي الفضل جلال الدين عبدالرحمٰن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية. هدف من خلاله إلى إظهار التصوُّف الحقيقي وكشف الشوائب التي أدخلها الدخلاء والأدعياء. فقال: «إعلم أن التصوُّف في نفسه علم شريف رفيع قدره سني أمره، لم تزل أئمة الإسلام يرفعون مناره.. ويعظِّمون أصحابه، ويعتقدون أربابه، فإنهم أولياء الله وخاصته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، غير أنه دخل فيهم قديماً وحديثاً

دخيل تشبّهوا بهم وليسوا منهم، وتكلموا بغير علم وتحقيق، فزلّوا وضلّوا وأضلّوا. . فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجمع، وقد نبّه المعتبرون منهم على هذا الخطب الجليل ونصّوا على أن هذه الأمور السيئة من ذلك الدخيل. . .». ففي هذا الكتاب ستظهر محاسن التصوّف وحقائقه، وأقوال أئمة الدين فيه، وبيان نشأته، وسبب تسميته، وذكر سنده متسلسلاً إلى النبي ﷺ، وبيان ضوابط السماع، وشرح الشطحات الصوفية، وغير ذلك آداب قلبية ملكوتية، وأنوار روحية جبروتية.

هذا وإتماماً للفائدة أضفنا للكتاب رسالتين جليلتين في بيان بعض الحقائق والمعارف الصوفية للشيخ العارف بالله القطب مصطفى البكري قدّس سرّه المتوفى سنة ١١٦٢ هجرية، الأولى: (المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود) والثانية: (صادحة الأزل).

وفي الختام لا بد من التذكير بأن كتب التصوّف تساعد المُريد على الاطلاع على الأحوال والمقامات، التي يمرّ بها السالك إلى الله تعالى، كما يطّلع على الحكم والقواعد الصوفية، التي يستلهم منها كيفية التحقّق بأحكام مقام الإسلام، وأنوار مقام الإيمان، وأسرار مقام الإحسان، وصولاً إلى قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩]. كل ذلك بإشراف ورعاية وتربية شيخه العالِم بأمراض النفوس والقلوب، وبالأدوية الشافية له من هذه الأمراض، لأنه ورث عن النبي ﷺ علوم وأسرار مقامات الدين الثلاث: الإسلام والإيمان والإحسان، والشريعة والطريقة والحقيقة، المُلك والملكوت والجبروت؛ مصداقاً لقوله ﷺ: **«العلماء ورثة الأنبياء»**، وقوله ﷺ: **«إن هذا العلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم»**.

ونرجو الله تعالى أن ينفعنا والمسلمين بما في هذه الكتب من الحب والإخلاص والصدق واليقين، ومن أنوار أسرار ما تعبّدنا لله به على لسان نبيّه ﷺ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾﴾ [النساء: ٦٨] لننال السعادة الحقيقية المتمثّلة بمعرفة الله تعالى في الدنيا، والنظر إلى وجهه الكريم في الآخرة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

كتبه الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي
الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الجلال السيوطي*

(٨٤٩ ـ ٩١١ هـ = ١٤٤٥ ـ ١٥٠٥ م)

هو الشيخ عبدالرحمٰن بن أبي بكر بن محمد بن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين: إمام حافظ مؤرخ أديب.

له نحو ستمائة مصنف، منها الكتاب الكبير، والرسالة الصغيرة.

نشأ في القاهرة يتيماً (مات والده وعمره خمس سنوات) ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحداً منهم، فألّف أكثر كتبه.

وكان الأغنياء والأمراء يزورونه ويعرضون عليه الأموال والهدايا فيردها.

وطلبه السلطان مراراً فلم يحضر إليه، وأرسل إليه هدايا فردها.

وبقي على ذلك إلى أن توفي.

وقرأت في كتاب (المنح البادية) أنه كان يلقّب بابن الكتب لأن أباه طلب من أمه أن تأتيه بكتاب، ففاجأها المخاض، فولدته وهي بين الكتب!

من كتبه: (الإتقان في علوم القرآن)، و(إتمام الدراية لقراءة النقاية) كلاهما له في علوم مختلفة، و(الأحاديث المنيفة)، و(الأرج في الفرج)، و(الأذكار في ما عقده الشعراء من الآثار)، و(إسعاف المبطأ في رجال الموطأ)، و(الأشباه والنظائر) في العربية، و(الأشباه والنظائر) في فروع الشافعية، و(الاقتراح) في أصول النحو، و(الإكليل في استنباط التنزيل)، و(الألفاظ المعربة)، و(الألفية في مصطلح الحديث)، و(الألفية في النحو) واسمها (الفريدة)، وله شرح عليها، و(إنباه الأذكياء لحياة الأنبياء)

* انظر الأعلام للزركلي [ج٣/ ص٣٠١].

رسالة، و(بديعية وشرحها)، و(بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة)، و(التاج في إعراب مشكل المنهاج)، و(تاريخ أسيوط) وكان أبوه من سكانها، و(تاريخ الخلفاء)، و(التحبير لعلم التفسير)، و(تحفة المجالس ونزهة المجالس)، و(تحفة الناسك)، و(تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي)، و(ترجمان القرآن)، و(تفسير الجلالين)، و(تنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك)، و(الجامع الصغير) في الحديث، و(جمع الجوامع، ويُعرف بالجامع الكبير)، ستة أجزاء، كُتب سنة ٩٧٣هـ في خزانة القرويين وفي الظاهرية، و(الحاوي للفتاوى)، و(حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف]

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى.

اعلم وفقني الله وإياك أن علم التصوف في نفسه علم شريف رفيع قدره سني أمره، لم تزل أئمة الإسلام وهداة الأنام قديماً وحديثاً يرفعون مناره ويُجِلُّون مقداره ويعظمون أصحابه ويعتقدون أربابه، فإنهم أولياء الله وخاصته من خلقه بعد أنبيائه ورسله، غير أنه دخل فيهم قديماً وحديثاً دخيل تشبهوا بهم وليسوا منهم وتكلموا بغير علم وتحقيق فزلُّوا وضلُّوا وأضلُّوا، فمنهم من اقتصر على الاسم وتوسل بذلك إلى حطام الدنيا، ومنهم من لم يتحقق فقال بالحلول وما شابهه فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، وقد نبّه المعتبرون منهم على هذا الخطب الجليل ونصوا على أن هذه الأمور السيئة من ذلك الدخيل، وقد وضعت هذه الكراسة وسميتها **تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية** مرتبة على فصول جعلها الله خالصة لوجهه ورزقنا الصدق في المقاصد والسلامة من الخطأ والخطل وشبهه.

فصل: الأصل في علم الحقيقة أحاديث وآثار.

فصل: منها ما أخرجه الشيخان عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ **أن موسى قال للخضر**: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦] **قال**: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧] **يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا ينبغي لك أن تعلمه، وأنت على علم علمك الله لا ينبغي لي أن أعلمه»**[1] أي جميعه. وكذا قوله: لا ينبغي لك أن تعلمه، أي جميعه. قال الحافظ ابن حجر: وتقدير ذلك معتبر لأن الخضر كان يعرف من الحكم الظاهر ما لا غنى للمكلف عنه، وموسى كان يعرف من الحكم الباطن ما يأتيه بطريق الوحي. وقال الشيخ سراج الدين

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم..، حديث رقم (١٢٢) [١/٥٦] ورواه مسلم في صحيحه، في بابين أحدهما: باب من فضائل الخضر عليه السلام، حديث رقم (٢٣٨٠) [٤/١٨٤٧] ورواه غيرهما.

البلقيني في الحديث: هذا قد يشكل فإن العلم المذكور في الجهتين كيف لا ينبغي علمه، قال: وجواب هذا الإشكال أن علم الحقائق والكشوف ينافي علم الظاهر فلا ينبغي للعالم الحاكم بالظاهر الذي هو مكلف به أن يعلم الحقائق للتنافي، ولا ينبغي للعالم بالحقيقة أن يعلم العلم الظاهر الذي ليس مكلفاً به الذي ينافي ما عنده من الحقيقة. قال: ويمكن حمل العلم على تنفيذه، والمعنى لا ينبغي لك أن تعلمه لتعمل به لأن العمل به مناف لمقتضى الشرع، ولا ينبغي لي أن أعلمه فأعمل بمقتضاه لأنه مناف لمقتضى الحقيقة. قال: فعلى هذا لا يجوز للولي التابع للنبي ﷺ إذا اطلع على حقيقة أن ينفذ ذلك بمقتضى الحقيقة، وإنما عليه أن ينفذ الحكم الظاهر. انتهى.

فصل: ومنها حديث عمر في سؤال جبريل عن الإحسان قال رسول الله ﷺ: **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** أخرجه الشيخان[1]. قال الهروي في منازل السائرين: هذا الحديث إشارة جامعة لمذهب هذه الطائفة. قال شارحه: لأن أصل هذه الطريقة الخاصة كمال المعرفة ودوام المراقبة للحق سبحانه في الحركات والسكنات بل في الأنفاس واللحظات حتى يستولي سلطان الحق على القلوب، فيضمحل ما تعلقت به أو سكنت إليه من الأحوال والخطوب.

فصل: ومنها ما أخرجه الطبسي في ترغيبه قال: أنبأنا القاضي أبو بكر أحمد بن الحسن، أنبأنا أبو علي حامد بن محمد الرفا الهروي، أنبأنا نصر بن أحمد البرزجاني، حدثنا عبد السلام بن صالح، حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل العلم بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله»**[2] هذا إسناد ضعيف.

[و] عبد السلام بن صالح هو أبو الصلت الهروي من رجال ابن ماجة كان رجلاً صالحاً لكنه شيعي وقد اختلف فيه. فقال أبو حاتم: لم يكن عندي بصدوق، وضرب أبو زرعة على حديثه، وقال العقيلي: رافضي خبيث، وقال النسائي: ليس بثقة، وقال ابن عدي: متهم، وقال الدارقطني: رافضي متهم بوضع حديث: الإيمان إقرار بالقول.

---

(١) البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: باب سؤال جبريل النبي ﷺ، حديث رقم (٥٠) [١/ ٢٧] ومسلم في صحيحه في بابين أحدهما: باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان.. حديث رقم (٨) [١/ ٣٦] ورواه غيرهما.

(٢) رواه الديلمي في الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٨٠٢) [١/ ٢١٠] وأورده المنذري في الترغيب والترهيب، برقم (١٤١) وعزاه إلى الديلمي في المسند وأبو عبدالرحمٰن السلمي في الأربعين.

وقال العباس الدورقي: سمعت يحيى يوثق أبا الصلت، وقال محمد بن محرز عن يحيى: ليس ممن يكذب، وأثنى عليه أحمد بن سيّار في تاريخ مرو، وقال: كان يعرف بالتشيع فناظرته لاستخراج ما عنده فلم أره يفرط. رأيته يقدم أبا بكر وعمر ولا يذكر الصحابة إلا بالجميل، وقال لي: هذا مذهبي الذي أدين الله به، قلت: **فالحاصل** أن حديثه في مرتبة الضعيف الذي ليس بالموضوع، وقد أورد القطب القسطلاني هذا الحديث في كتابه في التصوف وقال: إن له شاهداً من مرسل سعيد بن المسيّب، وأورد فيه حديث أنس مرفوعاً «**العلم علمان: فعلم ثابت بالقلب فذاك العلم النافع، وعلم في اللسان فذلك حجة الله على عباده**»[1] وهذا الحديث أخرجه أبو نعيم والديلمي في مسند الفردوس. وأورده الهروي في منازل السائرين بسنده من طريق الجنيد عن السري عن معروف الكرخي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن علي مرفوعاً «**طلب الحق غربة**»[2] وهذا الحديث أخرجه الديلمي في مسند الفردوس بسند مسلسل بالصوفية. وأورده القطب القسطلاني في كتابه وقال: يحتمل أن يريد بقوله: «طلب الحق» الله سبحانه وتعالى فإنه هو الحق المطلق ويطلق على غيره بلواحق وقيود. وبالغربة: البعد عن حظوظ النفس وشهواتها، ويحتمل أن يريد ما هو ثابت، وطلبه مشروع من الأعمال المقربة وبالغربة القلة وعزة الوجود لعدم المساعد على حصول المقصود كما في الحديث الآخر «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ فطوبى للغرباء**»[3] وأورد القطب أيضاً قول عيسى عليه السلام: «العلماء ثلاثة: عالم بالله وبأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله وعالم بأمر الله، ليس بعالم بالله» وأورد عن سفيان الثوري قال: «العلماء ثلاثة: عالم بالله يخشى الله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بالله عالم بأمر الله يخشى الله، فذلك العالم الكامل، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله لا يخشى الله، فذلك العالم الفاجر».

---

(١) رواه الدارمي في سننه، باب التوبيخ لمن يطلب العلم لغير الله، حديث رقم (٣٦٤) [١/ ١١٤] وابن أبي شيبة في مصنفه، ما ذكر عن نبينا ﷺ، حديث رقم (٣٦٤) [١/ ١١٤] وابن أبي شيبة في مصنفه، ما ذكر عن نبينا ﷺ، حديث رقم (٣٤٣٦١) [٧/ ٨٢] ورواه غيرهما.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (١٦٦٢) [٢/ ٥٣] وقال: «أخرجه الهروي في ذم الكلام ومنازل السائرين له بسند صوفي إلى علي وكذا الديلمي في اللآلىء ورواه شيخ الإسلام الأنصاري في خطبة منازل السائرين..».

(٣) رواه مسلم في صحيحه، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً..، حديث رقم (١٤٥) [١/ ١٣٠] ورواه أحمد في المسند عن عبدالرحمن بن سنة، حديث رقم (١٦٧٣٦) [٤/ ٧٣] ورواه غيرهما.

فصل: ومنها ما أخرجه الديلمي في مسند الفردوس بسند مسلسل من طريق أحمد بن غسان عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة مرفوعاً «**سألت جبريل عن علم الباطن ما هو فقال: قال الله هو سر بيني وبين أحبائي أودعه في قلوبهم**» وأخرجه من وجه آخر عن أحمد بن غسان به بلفظ «**سألت جبريل عن الإخلاص ما هو**» وهو مسلسل بسؤال كل راو لشيخه عن ذلك. وقال الذهبي في الميزان: عبد الواحد بن زيد البصري الزاهد شيخ الصوفية وواعظهم لحق الحسن وغيره ضعفه النقّاد فقال ابن معين: ليس بشيء، وقال البخاري: تركوه، وقال الجوزقاني: سيىء المذهب ليس من معادن الصدق، وقال الذهبي: له مناكير مع أنه كان مجاب الدعوة حدث عنه وكيع وأبو سليمان الداراني وقال: إنه صلّى الصبح بوضوء العتمة أربعين سنة، انتهى. وفي رجال الإسنادين سواه من لا يعرف.

فصل: أخرج الفريابي في تفسيره عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل آية ظهر وبطن**» قال ابن النقيب في تفسيره: ظهر الآية ما ظهر من معانيها لأهل العلم بالظاهر، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التي أطلع الله عليها أرباب الحقائق. وأخرج أبو نعيم عن ابن مسعود قال: «**إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلا له ظهر وبطن، وإن علي بن أبي طالبٍ عنده منه علِم الظاهر والباطن**» وأخرج أبو نعيم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنا نتحدث أن النبي ﷺ عهد إلى علي سبعين عهداً لم يعهد إلى غيره. وسيأتي لهذا مزيد كلام في فصل مستقل آخر الكتاب.

فصل: قال صاحب التعرف[1]: [و] ممن نطق بعلوم القوم، وعبّر عن مواجيدهم، ونشر مقاماتهم، ووصف أحوالهم، قولاً وفعلاً بعد الصحابة: علي بن الحسين زين العابدين وابنه محمد الباقر، وابنه جعفر الصادق، وأويس القرني، والحسن البصري، وأبو حازم سلمة بن دينار، وملاك بن دينار، وعبد الواحد بن زيد، وعتبة الغلام، وإبراهيم بن أدهم، والفضيل بن عياض وابنه علي، وداود الطائي، وسفيان الثوري، وأبو سليمان الداراني وابنه سليمان، وأحمد بن أبي الحواري، وذو النون المصري في آخرين. وذكر غيره أن علي بن أبي طالب أول من نهج الطريق، ثم ابنه الحسن.

---

(١) التعرُّف: كتاب التعرُّف لمذهب أهل التصوُّف لأبي بكر الكلاباذي، وهو كتاب مهم جداً في التعريف بحقيقة التصوُّف لاقى رواجاً واستحساناً من العلماء.

فصل: أما كلام علي فأشهره وهو الذي أورده كثير من الصوفية في كتبهم: ما أخرجه أبو نعيم في الحلية[١]. عن الكميل بن زياد قال: أخذ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بيدي فأخرجني إلى ناحية الجبان فلما أصحرنا جلس ثم تنفس ثم قال: يا كميل بن زياد القلوب أوعية فخيرها أوعاها. احفظ ما أقول لك، الناس ثلاثة: فعالم رباني، ومتعلم على سبيل نجاة، وهمج رعاع اتباع كل ناعق[٢]، إلى أن قال: إن هاهنا، وأشار بيده إلى صدره، علماً لو أصبت له حملة بل أصبته لقناً غير مأمون عليه، يستعمل آلة الدين للدنيا، يستظهر بحجج الله على كتابه، وبنعمه على عباده، أو منقاداً لأهل الحق، لا بصيرة له في أحشائه، ينقدح الشك في قلبه بأول عارض من شبهة، لا ذا ولا ذاك، أو منهوماً باللذات سلس القياد للشهوات، أو مغرى بجمع المال والأولاد والادخار، وليس من دعاة الدين، أقرب شبهاً بالأنعام السائمة كذلك يموت العلم بموت حامليه، اللهم لن تخلو الأرض عن قائم لله بحجة لكي لا تبطل حجج الله وبيناته، أولئك هم الأقلون عدداً الأعظمون عند الله قدراً، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر، فاستلانوا ما استوعر منه المترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون، صحبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالنظر الأعلى أولئك خلفاء الله في بلاده ودعاته إلى دينه فآهاً وشوقاً إلى رؤيتهم [واستغفر الله لي ولك وإذا شئت فقم].

وأما بقية كلام علي وكلام من ذكر معه فمسرود في تراجمهم في كتابي المسمى حلية الأولياء، وتركت سرده هنا خشية الإطالة.

فصل: قال عبد الغافر الفارسي: أخذ الأستاذ أبو القاسم القشيري طريق التصوف عن الأستاذ أبي علي الدقاق، وأخذها أبو علي عن القاسم النصراباذي، والنصراباذي عن الشبلي، والشبلي عن الجنيد، والجنيد عن السري السقطي، والسري عن معروف الكرخي، ومعروف عن داود الطائي، وداود لقي التابعين. وهكذا كان يذكر إسناد طريقته.

---

(١) حلية الأولياء، ترجمة علي بن أبي طالب [١/ ٧٩].

(٢) وتتمة النص هنا هي: يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق، العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكو على العمل، والمال تنقصه النفقة، ومحبة العالم دين يدان بها، العلم يكسب العالم الطاعة في حياته، وجميل الأحدوثة بعد موته، وصنيعة المال تزول بزواله، مات خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة.

فصل: قال الشيخ الإمام الحافظ تقي الدين ابن الصلاح إمام الشافعية والمحدثين في عصره: لبس الخرقة من القرب وقد استخرج لها بعض المشايخ أصلاً من سنة النبي ﷺ وهو حديث أم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاصي أن رسول الله ﷺ أتى بكسوة فيها خميصة فقال: «مَن ترون أحق بهذه؟» فسكت القوم فقال: «ائتوني بأم خالد» فأتي بها فألبسها إياها ثم قال: «أبلي وأخلقي»[1] مرتين، أخرجه البخاري. قال ابن الصلاح: ولي في لبس الخرقة إسناد عالي جداً ألبسني الخرقة أبو الحسن المؤيد بن محمد الطوسي قال: أخذت الخرقة من أبي الأسعد هبة الرحمٰن بن أبي سعيد عبد الواحد بن أبي القاسم القشيري قال: أخذت الخرقة من جدي أبي القاسم، وهو أخذها من أبي علي الدقاق، وهو أخذها من أبي القاسم إبراهيم بن محمد بن حمويه النصراباذي، وهو أخذها من أبي بكر دلف بن جحدر الشبلي، وهو أخذها من الجنيد، وهو أخذها من السري السقطي، وهو أخذها من معروف الكرخي، وهو أخذها من داود الطائي، وهو أخذها من حبيب العجمي، وهو أخذها من الحسن البصري، وهو أخذها من علي بن أبي طالب، وهو أخذها من النبي ﷺ. قال ابن الصلاح: وليس بقادح فيما أوردناه كون لبس الخرقة ليس متصلاً إلى منتهاه على شرط أصحاب الحديث في الأسانيد فإن المراد ما يحصل البركة والفائدة باتصالها بجماعة من السادة الصالحين.

فصل: قال يحيى بن عمار التيمي السجستاني: العلوم خمسة: علم هو حياة الدين وهو علم التوحيد، وعلم هو قوت الدين وهو علم العظة والذكر، وعلم هو دواء الدين وهو الفقه، وعلم هو داء الدين وهو أخبار فتن السلف، وعلم هو هلاك الدين وهو علم الكلام، انتهى.

فصل: قال الشافعي رضي الله عنه: صحبت الصوفية فلم أستفد منهم سوى حرفين، وفي رواية: سوى ثلاث كلمات، قولهم: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل، وقولهم: العدم عصمة.

فصل: وقال الشيخ تاج الدين السبكي في كتابه معيد النعم ومبيد النقم، المثال السادس والستون: الصوفية حياهم الله وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم، وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المبتلين بها. قال الشيخ

---

(١) صحيح البخاري، باب الخميصة السوداء، حديث رقم (٥٤٨٥) [٥/ ٢١٩١] ورواه أبو داود في سننه باب فيما يدعى لمَن لبس ثوباً جديداً، حديث رقم (٤٠٢٤) [٤/ ٤٢].

أبو محمد الجويني: لا يصح الوقف عليهم لأنهم لا حد لهم معروف. والصحيح الصحة. وأنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة، ومن ثم قال الجنيد: التصوف استعمال كل خلق سني وترك كل خلق دني. وقال الشبلي: التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك. وقال ذو النون المصري: الصوفي من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق وإذا سكت نطقت عنه الجوارح. وقال ابن بندار: التصوف إسقاط رؤية الخلق ظاهراً وباطناً. وقال أبو علي الروذباري الصوفي: من لبس الصوف على الصفا وأذاق الهوى طعم الجفا ولزم طريق المصطفى وكانت الدنيا منه على القفا. وكان الشيخ الإمام يقول: الصوفي من لزم الصفا مع الحق، والخُلُق الحسن مع الخَلْق، وينشد:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا قدماً وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حتى سمي الصوفي

وهذه عبارات متقاربة، **والحاصل** أنهم أهل الله وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم، ويستنزل الغيث بدعائهم، فرضي الله عنهم وعنا بهم، وللقوم أوصاف وأخبار اشتملت عليها كتبهم، قال الأستاذ أبو القاسم القشيري: جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضّلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه، ثم جعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغيّاث للخلق والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق.

ومن أوصاف هذه الطائفة الرأفة والرحمة والعفو والصفح وعدم المؤاخذة، وضابطهم ما ذكرناه، وطريقتهم كما قال أبو القاسم الجنيد: طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، وقال: الطريق مسدود على خلق الله إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ، ومن حقهم تربية المريد إذا لاحت عليه لوائح الخير وإمداده بالخاطر والدعاء. يحكى عن بعض المشايخ أن تلميذه حضر إليه وهو جالس في جماعة وقد ارتفع النهار فتفرس الشيخ أنه في الليلة الذاهبة كان قد ارتكب معصية فنظر إليه نظر مغضب ولم يمكنه الإفصاح له بمحضر من الجماعة، فنظر التلميذ إلى الشيخ نظرة منكر، فقام الشيخ وجاء وقبّل يد المريد ولم يفهم الجماعة شيئاً، فسئل الشيخ بعد ذلك فقال إنه البارحة وقع في الزنا فنظرت إليه نظرة مغضب لذلك، فنظر إليّ نظر عاتب يقول: لو كان خاطرك معي وإمدادك مصاحبي لما وقع مني ذلك فأنت المقصر، فقبّلت يده لصدقه فإن التقصير مني.

ومن حقهم الوقوف على إظهار ما يطلعهم الله عليه من المغيبات ويخصهم به من الكرامات على الإذن، وهم لا يجيزون إظهارها بلا فائدة، ولا يظهرونها إلا عن إذن لفائدة دينية من تربية أو بشارة أو نذارة، كما قال الصديق لعائشة عند موته: إنما هما أخواك وأختاك، قالت: إنما هي أسماء فمن الأخرى، قال ذو بطن: بنت خارجة أراها جارية فولدت بعد وفاته بنتاً، فلم يظهر أبو بكر ذلك إلا لاستطابة قلب عائشة عن استرجاع ما كان يخصها من الإرث[١]، وكذلك قول عمر: يا سارية الجبل الجبل[٢]، وقصته في الزلزلة وإجراء النيل[٣] وغير ذلك، وإنما أظهرها لمصلحة. وكرامات عمر أكثر من أن تحصر. وهي من تمكنه في الأرض ظاهراً وباطناً وكونه أمير المؤمنين على الحقيقة وخليفة الله في أرضه وساكني أرضه.

وإذا علمت أن خاصة القوم هم الصوفية فاعلم أنه قد تشبّه بهم أقوام ليسوا منهم فأوجب تشبه هؤلاء بهم سوء الظن، ولعل ذلك من الله قصداً لخفاء هذه الطائفة التي تؤثر الخمول على الظهور.

---

(١) النووي في تهذيب الأسماء والصفات، رقم (١٢٣٩) [٢/ ٦٣٠].

(٢) الدينوري في تأويل مختلف الحديث، قالوا: حديث يكذبه النظر..، [١/ ١٦٢] وابن حجر العسقلاني في الإصابة في تمييز الصحابة، [٣/ ٦].

(٣) وتفصيل قصة جري النيل كما في كرامات الأولياء لهبة الله اللالكائي، سياق ما روي من كرامات أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب، [١/ ١٢٠] على النحو التالي:

عن قيس بن حجاج عمن حدثه قال: لما فتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤونة من أشهر العجم فقالوا: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها.

فقال له عمرو: إن هذا مما لا يكوّن في الإسلام إن الإسلام يهدم ما قبله قال: فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى همُّوا بالجلاء فلما رأى ذلك عمرو كتب بذلك إلى عمر بن الخطاب فكتب إنك قد أصبت بالذي فعلت وإن الإسلام يهدم ما قبله وإني قد بعثت إليك ببطاقة داخل كتابي هذا فألقها في النيل فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو أخذ البطاقة ففتحها فإذا فيها من عبدالله عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر أما بعد فإن كنت إنما تجري من قبلك فلا تجر وإن كان الله الواحد القهّار هو الذي يجريك فنسأل الله الواحد القهّار أن يجريك، قال: فألقى البطاقة في النيل، فلما ألقى البطاقة أصبحوا يوم السبت وقد أجراه الله تعالى ستة عشر ذراعاً في ليلة واحدة وقطع الله تعالى تلك السنة عن أهل مصر إلى اليوم.

وأما قصة الزلزلة فحاصلها كما ذكر ابن السبكي في معيد النعم: أن الأرض ارتجّت على عهد عمر فضربها بالدرة وقال: اسكني ألم أعدل عليك؟ وكانت تضطرب فسكنت.

ثم قال: وعلى الشيخ تربية المريد وحمل الأذى والضيم على نفسه، واعتبار قلوب جماعته قبل قوالبهم، والكلام مع كل منهم بحسب ما يقبله عقله وتحمله قواه ويصل إليه ذهنه والكف عن ذكر ألفاظ ليس سامعها من أهلها كالتجلي والمشاهدة ورفع الحجاب إذا كان السامع بعيداً عنها، فإن في ذكرها له من المفاسد ما لا خفاء به، بل يأخذ المريد بالصلاة والتلاوة والذكر ويربيه على التدريج، والله الله في ألفاظ جرت من بعض سادات القوم لم يعنوا بها ظواهرها وإنما عنوا بها أموراً صحيحة، فلا ينبغي للشيخ ذكرها لمريد فإنه يضله، مثل ما يقال عن بعضهم: العلم حجاب، فإنه ما يريد به ظاهر ما يفهمه المبتدي منه، ولكن له معنى لا يناسب حال المبتدي الكشف عنه، وغير ذلك من ألفاظ ربما جرى بعضها في حال السكر، فإنها مما لا يقتدى بها ولا يوجب القدح في قائلها بل نسلم إليه حاله، ونقيم عذره فيما سقط من بين شفتيه حال الغيبة، فإن الشارع لم يكلف غائب الذهن، هذا إذا فقدت أسباب التأويل لكلامه بالكلية، ولن تجد ذلك إن شاء الله في كلام أحد من المعتبرين، قد نزّه الله ألفاظهم عن الأباطيل، وما لهم كلمة إلا ولها محمل حسن، هذا كله كلام السبكي.

وقال في موضع آخر من هذا الكتاب: ومن الفقهاء فرقة متنكسة تجري على ظواهر الشرع، وتحسن أوامر الله ونواهيه إلا أنها تهزأ بالفقراء وأهل التصوف ولا تعتقد فيهم شيئاً، ويعيبون عليهم السماع وأموراً كثيرة، والسماع قد عرف اختلاف الناس فيه، وتلك الأمور قلّ أن يفهمها من يعيبها، والواجب تسليم أحوال القوم لهم، فإنا لا نأخذ أحداً إلا بجريمة ظاهرة، ومتى أمكننا تأويل كلامهم وحمله على محمل حسن لا نعدل عن ذلك، لا سيما من عرفناه بالخير ولزوم الطريقة، ثم ندرت منه لفظة، فإنها لا تهدم عندنا ما مضى، وقد جربنا فلم نجد فقيهاً ينكر على غلطة أو سقطة على الصوفية إلا ويهلكه الله وتكون عاقبته وخيمة، وهؤلاء القوم لا يعاملون بالظواهر، ولا يفيد معهم إلا الباطن، ومحض الصفاء، وهم أهل الله وخاصته، نفعنا الله بهم، وأكثر من يقع فيهم لا يصلح، انتهى كلام السبكي بحروفه.

فصل: قال في الروضة: الوقف على الصوفية، حكي عن الشيخ أبي محمد أنه باطل، إذ ليس للمتصوف حد يعرف، والصحيح المعروف صحته، وهم المشتغلون بالعبادة في أغلب الأوقات المعرضون عن الدنيا، وفصل الغزالي في الفتاوى فقال: لا بد في الصوفي من العدالة وترك الحرفة ولا بأس بالوراقة والخياطة وشبهها إذا تعاطاها أحياناً في الرباط لا في الحانوت ولا يقدح قدرته على الكسب، ولا اشتغاله

بالوعظ والتدريس، ولا أن يكون له من المال قدر لا تجب فيه الزكاة ولا يفي دخله بخرجه، ويقدح الثروة الظاهرة بالعروض الكثيرة، ولا بد أن يكون في زي القوم إلا أن يكون مساكناً فتقوم المخالطة والمساكنة مقام الزي، قال: ولا يشترط لبس المرقعة من شيخ، وكذا ذكر المتولي.

فصل: قال الغزالي في جواهر القرآن: مقاصد القرآن ستة سادسها تعريف منازل الطريق وإليه الإشارة بقوله في الفاتحة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ [الفَاتِحَة: ٥] وقال الطيبي في حاشية الكشاف: العلوم التي هي مناط الدين أربعة كلها في الفاتحة: علم الأصول، وعلم الفروع، وعلم القصص، وعلم ما يحصل به الكمال وهو علم الأخلاق، وأجله الوصول إلى الحضرة الصمدانية، والالتجاء إلى جناب الفردانية، والسلوك لطريقه، والاستقامة فيها، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفَاتِحَة: ٥، ٦].

فصل: ويؤخذ من بقية سوره بطريق الإشارة أن ثَمَّ طرقاً أخرى متشعبة خارجة عن سنن الاستقامة فليحذر منها وهي طريق المغضوب عليهم والضالين.

فصل: قال ابن القاص من كبار أصحابنا في كتابه التلخيص في الفقه لما عدّ خصائص النبي ﷺ الواجبة عليه دون سائر الأمة ومنها أنه ﷺ كان مطالباً برؤية مشاهدة الحق مع معاشرة الناس بالنفس والكلام، وذكر هذه الخصيصة أيضاً القضاعي في سيرته وابن سبع في خصائصه، وحمل على هذا قوله ﷺ: **«إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله سبعين مرة»**[1] وقد ذكر هذه الخصيصة أيضاً ابن الملقن في الخصائص. وقال البيهقي في شعب الإيمان: ذكر بعض أهل العلم أن الغين شيء يغشى القلب فيغطيه بعض التغطية، ويحجبه عما يشاهده، وهو كالغيم الرقيق الذي يعرض في الهوى ولا يكاد يحجب عين الشمسّ ولا يمنع ضوءها، والنبي ﷺ ذكر أنه يغشى قلبه ما هذه صفته، وذكر أنه يستغفر الله منه كل يوم مائة مرة، ثم قال البيهقي: أنبأنا أبو عبد الله الحافظ، يعني شيخه الحاكم صاحب المستدرك.

قال: سمعت الأستاذ أبا سهل محمد بن سليمان، يعني الصعلوكي، أحد أئمة الشافعية وهو المبعوث على رأس المائة الرابعة فيما ذكر الأصحاب يقول: قوله:

---

(١) رواه مسلم في صحيحه، باب استحباب الاستغفار والاستكثار منه، حديث رقم (٢٧٠٢) [٤/ ٢٠٧٥] وفيه (مائة مرة) بدل (سبعين مرة) ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكر لفظ لم يعرف معناه، حديث رقم (٩٣١) [٣/ ٢١١].

«ليغان على قلبي» له تأويلات **أحدها** يختص به أهل الإشارة وهو حملهم إياه على غشية السكرة التي هي الصحو في الحقيقة، ومعنى الاستغفار عقبها على التحسر للكشف عنها. وأهل الظاهر يحملونها على الخطرات العارضة للقلب والطلبات الواردة عليه الشاغلة له بهذه الغشية الملابسة. وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: سمعت هذا الحديث فأشكل علي معناه فرأيت رسول الله ﷺ وهو يقول لي: يا مبارك ذاك غين أنوار لا غين أغيار.

فصل: قال شارح منازل السائرين: حقيقة الشيء عند أهل هذا الشأن علاماته الدالة عليه، ومنه قوله ﷺ لحارثة: **«كيف أصبحت؟»** فقال: أصبحت مؤمناً حقاً، فقال: **«إن لكل قول حقيقة فما حقيقة إيمانك؟»** قال: عزفت نفسي عن الدنيا.. الحديث[1]، فأخبره بعلامات صحة الإيمان.

فصل: ويظهر لي أن أهل هذا الشأن إنما سموا علمهم علم الحقيقة أخذاً من لفظ الحقيقة في هذا الحديث، وقد ظهر لي أن نسبة علم الحقيقة إلى علم الشريعة كنسبة علم المعاني والبيان إلى علم النحو، فهو سره ومبني عليه. فمن أراد الخوض في علم الحقيقة من غير أن يعلم الشريعة فهو من الجاهلين ولا يحصل على شيء، كما أن من أراد الخوض في أسرار علم المعاني والبيان من غير أن يحكم النحو فهو يخبط خبط عشواء، وكيف يدرك أحوال الإسناد والمسند إليه والمسند ومتعلقات الفعل من لم يعرف المبتدأ من الخبر والفاعل من المفعول، هذا بيّن لكل أحد.

والحقيقة سر الشريعة ولبها الخالص، كما أن المعاني والبيان سر النحو ولطائفه، والتصوف فقه بلا شك، فإن أكثره تكاليف واجبة ومندوبة، ومنها محرمة ومكروهة، وقد نصّ على أن أبواب التصوف من الفقه جماعة من أهل الأصول حيث ذكروا حد الفقه، ووافقهم ابن السبكي في جمع الجوامع، وضم إليه مسائل أصول الدين التي يجب اعتقادها، فقال: إنها عندي فقه.

واعلم أن دقائق علم التصوف لو عرضت معانيها على الفقهاء بالعبارة التي ألفوها في علومهم لاستحسنوها كل الاستحسان وكانوا أول قائل بها، وإنما ينفرهم منها إيرادها بعبارة مستغربة لم يألفوها، ولهذا قال بعضهم: الحقيقة أحسن ما تعلم

---

(١) رواه ابن أبي شيبة، حديث رقم (٣٠٤٢٥) [٦/ ١٧٠] وتتمته: وأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي قد أبرز للحساب، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون في الجنة، وكأني أسمع عواء أهل النار، قال: فقال له عبد نوّر الإيمان في قلبه: إن عرفت فالزم. ورواه الطبراني في الكبير، حديث رقم (٣٣٦٧) [٣/ ٢٦٦] ورواه غيرهما.

وأقبح ما يقال. وأنا أورد لك مثالاً تعرف صحة ذلك، قال في منازل السائرين حقيقة التوبة ثلاثة أشياء: تميز الثقة من العزة، ونسيان الجناية، والتوبة من التوبة أبداً، فإذا سمع الفقيه هذا اللفظ وهو التوبة من التوبة استغربه جداً وقال: كيف يتاب من التوبة وهي عمل صالح وإنما يتاب من المعاصي، وتقرير معناه: أن العبد إذا كمل في رجوعه إلى الله لم يلتفت إلى أعماله، ولم يسكن إليها بقلبه توبة كانت أو غيرها، فيتوب من سكونه إلى توبته، ويزاد إيضاحاً أن التوبة وإن كانت من كسب العبد فهي من خلق الله وتوفيقه فهو التائب عليه ولو لم يتب عليه لما تاب، قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] فأي صنع للعبد في التوبة، أو غيرها وهو الذي وفقه الله لفعلها، فرؤية العبد التوبة من نفسه ذنب يستغفر منه، بل عليه أن يشهد محض منّة الله عليه بها وتوفيقه لها، ويلغي نفسه أصلاً عن درجة الاعتبار، وهذا مقام الفناء في التوبة وهي أول منازل السائرين، ويقاس به مقام الفناء في التوحيد، فلا يشهد في توحيده صنعاً بل محض منّة الله عليه به وتوفيقه، وهذا المعنى إذا عرض على الفقيه بهذه العبارة المألوفة كان أول قائل به وناصر له لأن الفقيه السني يقاتل على إثبات الأفعال لله ونفيها عن العبد مخالفة للمعتزلة والقدرية ونحوهم ممن زعم أن العبد يخلق أفعاله وأن الانتقال مخالفة.

فصل: كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يقول: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد الغزالي، وكان يقول: كتاب الإحياء يورثك العلم وكتاب القوت يورثك النور، وكان يقول: عليكم بالقوت فإنه قوت، وكان يعظم الإمام أبا عبد الله محمد بن علي الترمذي ويقول: إنه أحد الأوتاد الأربعة، وكان لكلامه عنده الحظوة التامة.

فصل: وسئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام عن قول العلماء في «الإحياء» لما ذكر معرفة الله تعالى والعلم به، قال: والرتبة العليا في ذلك للأنبياء ثم الأولياء العارفين ثم العلماء الراسخين ثم الصالحين، فقدّم الأولياء على العلماء وفضّلهم عليهم. وقال الأستاذ القشيري في أول رسالته: أما بعد فقد جعل الله سبحانه هذه الطائفة صفوة أوليائه وفضلهم على الكافة بعد رسله وأنبيائه، فهذا كنحو قول أبي حامد: وهل هذا المذهب صحيح أم لا؟ فإن بعض الناس قال: لا يفضل الولي على العالم لأن تفضيل الشخص على الآخر إنما هو برفع درجته لكثرة ثوابه المرتب على عمله فلا فضل إلا بتفاوت الأعمال، وقد ثبت أن العلم أفضل من العمل لأنه متعد والعمل قاصر، والمتعدي خير من القاصر وثوابه أكثر فصاحبه أفضل.

قال هذا القائل: وأما تخصيص الله سبحانه وتعالى من شاء بشيء من المنح والمواهب فليس ذلك برفع درجته له بمجرده، ولا يفضل بذلك على غيره، وإنما فضل الشيء غيره بكثرة ثوابه المرتب على أعماله الشاقة التي كلف القيام بها، ولو تجردت عن التكاليف لم يفضل بذلك غيره فما حكم هذا الكلام؟ فأجاب الشيخ عز الدين بقوله: أما تفضيل العارفين بالله على العارفين بأحكام الشرع فقول الأستاذ وأبي حامد فيه متفق، ولا يشك عاقل أن العارفين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت الكمال، وبما يستحيل عليه من العيب والنقصان أفضل من العارفين بالأحكام بل العارفون بالله أفضل من أهل الفروع والأصول، لأن العلم يشرف بشرف المعلوم وبثمراته، فالعلم بالله وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم من جهة أن متعلقه أشرف المعلومات وأكملها، ولأن ثماره أفضل الثمرات فإن معرفة كل صفة من الصفات توجب حالاً عليه وينشأ عن تلك الحال ملابسة أخلاق سنية ومجانبة أخلاق دنية، فمن عرف سعة الرحمة أثمرت معرفته سعة الرجاء، ومن عرف شدة النقمة أثمرت معرفته شدة الخوف، وأثمر خوفه الكف عن الإثم والعصيان والفسوق مع البكاء والأحزان والورع وحسن الانقياد والإذعان، ومن عرف أن جميع النعمة منه أحبه وأثمرت المحبة آثارها المعروفة، وكذلك من عرف تفرده بالنفع والضر لم يعتمد إلا عليه ولم يفوض إلا إليه، ومن عرفه بالعظمة والإجلال هابه وعامله معاملة الهائبين من الانقياد والتذليل وغيرهما.

فهذه بعض ثمار معرفة الصفات، ولا شك أن معرفة الأحكام لا تورث شيئاً من هذه الأحوال ولا من هذه الأقوال والأعمال، ويدل على ذلك الوقوع. فإن الفسوق فاش في كثير من علماء الأحكام بل أكثرهم مجانبون الطاعة والاستقامة، بل قد اشتغل كثير منهم بأقوال الفلاسفة في النبوات والإلهيات، فمنهم من خرج عن الدين، ومنهم من شك، فتارة تترجح عنده الصحة وتارة يترجح عنده البطلان، فهم في ريبهم يترددون.

والفرق بين المتكلمين من الأصوليين وبين العارفين أن المتكلم تغيب عنه علومه بالذات والصفات في أكثر الأوقات، ولا تدوم له تلك الأحوال ولو دامت لكان من العارفين، لأنه شاركهم في دوام العرفان الموجب للأحوال الموجبة للاستقامة وكيف يساوي بين العارفين وبين الفقهاء والعارفون له أفضل الخلق، وأتقاهم لله والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] ومدحه في كتابه المبين أكرم مدحة للعالمين، وأما قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر

٢٨] فإنما أراد العارفين به وبصفاته وأفعاله دون العارفين بأحكامه، فلا يجوز حمل ذلك على علماء الأحكام، لأن الغالب عليهم عدم الخشية، وخبر الله تعالى صدق فلا يحمل إلى على من عرفه وخشيه، وقد روي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو ترجمان القرآن.

ثم نقول: إن العلماء بالأحكام أقسام: **أحدها**: مَن تعلّم لغير الله وعلّم لغير الله فعلم هذا وتعليمه وبال عليه، **والثاني**: مَن تعلّم لغير الله وعلم لله فهذا ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ولا أدري هل يقوم إحسانه بإساءته أم لا، **الثالث**: مَن تعلّم لله وعلّم لغير الله، فهذا كالأول أو أشد إثماً منه، **الرابع**: مَن تعلّم لله وعلّم لله وهو ضربان **أحدهما**: أن لا يعمل بعلمه فهذا شقي لا يفضل على أحد من أولياء الله تعالى. وإن عمل بعلمه؛ فإن كان عالماً بالله تعالى وبأحكامه فهذا من السعداء، وإن كان من أهل الأحوال العارفين بالله فهذا من أفضل العارفين، إذ حاز ما حازوه وفضل عليهم بمعرفة الأحكام وتعليم أهل الإسلام.

وأما قول من يقول: العمل المتعدي خير من العمل القاصر فإنه جاهل بأحكام الله تعالى، بل للعمل القاصر أحوال **إحداهن**: أن يكون أفضل من المتعدي كالتوحيد والإسلام والإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وكذلك الدعائم الخمس إلا الزكاة، وكذلك التسبيح عقيب الصلاة فإن النبي ﷺ قدّمه على التصدق بفضول الأموال وهو متعد، وقال: «**أقرب ما يكون العبد من الله إذا كان ساجداً**»(١)، وقال: «**خير أعمالكم الصلاة**»(٢) وسئل ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال: «**إيمان بالله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**جهاد في سبيل الله**» قيل: ثم ماذا؟ قال: «**حج مبرور**»(٣) فهذه كلها أعمال قاصرة وردت الشريعة بتفضيلها. **القسم الثاني**: ما تكون متعدية كَبِرِّ الوالدين إذ سئل أي الأعمال أفضل فقال: «**بر الوالدين**» وليست الصلاة بأفضل من كل عمل متعد، فلو رأى المصلي غريقاً يقدر على إنقاذه، أو مؤمناً يُقتل ظلماً، أو امرأة يُزنى

---

(١) رواه النسائي في السنن الكبرى (٧٥ أقرب ما يكون العبد من الله جلّ ثناؤه) حديث رقم (٧٢٣) [١/ ٢٤٢] والطبراني في المعجم الكبير (١٠٠١٤) [١٠/ ٧٩].

(٢) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، كتاب الطهارة، حديث رقم (١ ـ ٢٢٢) [١/ ٢٢١] وابن حبان في صحيحه، كتاب الطهارة، حديث رقم (١٠٣٧) [٣/ ٣١١] ورواه غيرهما.

(٣) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: (١٦ باب من قال: إن الإيمان هو العمل...، حديث رقم (٢٦) [١/ ١٨] ومسلم في صحيحه، (٣٦ باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل) حديث رقم (٨٣) [١/ ٨٨] ورواه غيرهما.

بها، أو صبياً يؤتى منه الفاحشة، وقدر على التخليص والإنقاذ لزمه ذلك مع ضيق الوقت، لأن رتبته عند الله أفضل من رتبة الصلاة، والصلاة إن قيل ببطلانها أمكن تداركها بالقضاء، فهذان القسمان مبنيان على رجحان مصالح الأعمال، فإن كانت مصلحة القاصر أرجح من مصلحة المتعدي، فالقاصر أفضل من المتعدي، وإن كانت مصلحة المتعدي أرجح قدمت على القاصر، فتارة نقف على الرجحان فنقدم الراجح، وتارة ينص الشرع على تفضيل أحد العملين فنقدمه، وإن لم نقف على رجحانه وتارة لا نقف على الرجحان ولا نجد نصاً يدل على التفضيل فليس لنا أن نجعل القاصر أفضل من المتعدي، ولا أن نجعل المتعدي أفضل من القاصر، لأن ذلك موقوف على الأدلة الشرعية، فإذا لم يظهر شيء من الأدلة الشرعية، لم يجز أن نقوّل على الله ما لا نعلم، أو نظنه بدلالة شرعية.

فائدة: إذا استوى الناس في المعارف بحيث لا يفضل بعضهم على بعض في ذلك، فلا فضل لبعضهم على بعض إلا بتوالي العرفان واستمراره، لأن توالي ذلك شرف فقد فات البعض وفاز به البعض، وكذلك لا تدوم الأحوال الناشئة عن هذه المعارف إلا بدوام المعارف، ولا تدوم الطاعات الناشئة عن الأحوال إلا بدوام الأحوال، فإذا دام صلاح القلب بدوام المعارف والأحوال، دام صلاح الجسد بحسن الأقوال واستقامة الأعمال، وإذا غلبت الغفلة على القلب فسدت الأحوال الناشئة عن المعارف، ففسد القلب بذلك، وفسدت بفساده الأقوال والأعمال. والمعارف رتب في الفضل والشرف بترتب فضل الأحوال الناشئة عنها من على رتبها في الفضل والكمال، وكذلك ما يترتب عليها من الأقوال والأعمال، والحال الناشئة عن معرفة الجلال والكمال ينشأ عنها أفضل الأعمال وهو التعظيم والإجلال، وملاحظة شدة الانتقام ينشأ عنها أفضل الأعمال وهو التعظيم والخوف، وملاحظة سعة الرحمة ينشأ عنها الطمع والرجاء، وملاحظة التوحيد بالنفع والضر ينشأ عنها التوكل على الله في جميع الأحوال، فالهائب أفضل من المحب، والمحب أفضل من المتوكل، والمتوكل أفضل من الخائف، والخائف أفضل من الراجي، فهذه من أوصاف العارفين بالله، ومما يدل على فضلهم على الفقهاء ما يجريه الله تعالى عليهم من الكرامات الخارقة للعادات، ولا يجري شيء من ذلك على يد الفقهاء إلا أن يسلكوا طريق العارفين ويتصفوا بأوصافهم: «**وما سبقكم أبو بكر بصوم ولا بصلاة ولكن بشيء وقر في صدره**»[1]. ولا

---

(١) أورده أبو الفرج البغدادي في جامع العلوم والحكم [١/ ٣٠] والمناوي في فيض القدير، حرف السين، [٤/ ١٤٤].

يصح قول من قال إن رسول الله ﷺ إنما فُضِّل بأعماله الشاقة لأن رسول الله ﷺ إنما فُضِّل بتكليم الله تعالى إياه تارة على لسان جبريل وتارة من غير واسطة، وكذلك فُضِّل بالمعارف والأحوال، ولقد قال: «**[والله] إني لأرجو أن أكون أعلمكم بالله وأشدكم لله خشية**»[1] وكذلك لما احتقر بعضهم قيام رسول الله ﷺ إلى قيامه وصلاته إلى صلاته أنكر ذلك ﷺ فذكر أن تفضيله عليهم إنما كان بمعرفته بالله تعالى، وهذا أكثر جهات تفضيل رسول الله ﷺ، ولا مشقة عليه فيها، وكيف لا يكون ذلك والله تعالى يقول لموسى: ﴿إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي﴾ [الأعراف: ١٤٤] ومثل هذه المعاملة لا تصدر إلا من جِلْف جاف، وكيف يفضل رسول الله ﷺ بأعماله الشاقة مع أنه لا نسبة لأعماله وصبره وتاذيه من قومه تقوم بأعمال قوم نوح وصبره، وما أسرع الناس بأن يقولوا ما ليس لهم به علم، ولو أنهم سألوا إذا جهلوا لكان خيراً لهم، اهـ.

فصل: قال أبو طالب المكي في قوت القلوب:

اعلم أن العبد إذا كان يذكر الله تعالى بالمعرفة وعلم اليقين لم يسعه تقليد أحد من العلماء، وكذلك كان المتقدمون إذا افتتحوا هذا المقام خالفوا من حملوا عنه العلم لمزيد اليقين والإفهام. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله ﷺ، وقد كان تعلّم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبي بن كعب ثم خالف زيداً في الفقه وأبياً في القراءة. وقال بعض الفقهاء من السلف: ما جاءنا عن رسول الله ﷺ قبلناه على الرأس والعين، وما جاءنا عن الصحابة فنأخذ به ونترك، وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال، قالوا ونقول: ولأجل ذلك كان الفقهاء يكرهون التقليد ويقولون: لا ينبغي للرجل أن يفتي حتى يعرف اختلاف العلماء أي فيختار منها الأحوط للدين والأقوى باليقين، فلو كانوا يحبون أن يفتي العالم بمذهب غيره لم يحتج أن يعرف الاختلاف، ولكان إذا عرف مذهب صاحبه كفاه، ومن ثم قيل: إن العبد يُسألُ غداً فيقال له: ماذا عملت فيما علمت، ولا يقال له فيما عمل غيرك، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الروم: ٥٦] فقرن بينهما فدلّ على أنه من أوتي إيماناً ويقيناً أوتي علماً، كما أن من أوتي علماً نافعاً أوتي إيماناً، وهذا أحد الوجوه في معنى قوله: ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي قوّاهم بعلم الإيمان، فعلم الإيمان هو روحه، وتكون الهاء عائدة على الإيمان، وكذا العالم الذي هو من أهل الاستنباط والاستدلال في الكتاب والسنّة، ومعرفة أداء الصنعة وآلة الصنع لأنه ذو تمييز وبصيرة ومن أهل التدبر

---

(١) رواه ابن عبد البر في التمهيد، النبي ﷺ يحذّر أصحابه، [٥/ ١٢٠].

والعبرة، ثم قال: وقد كان من هدي أهل العلم في قعودهم أن يجتمع أحدهم في قعوده وينصب ركبتيه، ومنهم من كان يقعد على قدميه ويضع مرفقيه على ركبتيه، كذلك كانت شمائل كل من تكلم في هذا العلم إلى وقت أبي القاسم الجنيد، ولذلك روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يقعد القرفصاء ويحتبي بيديه، وأول من قعد على كرسي يحيى بن معاذ الرازي، وفي زمن الجنيد أبو حمزة البغدادي، فعاب الأشياخ ذلك عليه، ولم يكن ذلك سيرة العارفين الذين يتكلمون في علم المعرفة واليقين إنما كان جلوسهم الاحتباء، وإنما يجلس متربعاً النحاة وأهل اللغة، وأبناء الدنيا من علماء المفتين وهي جلسة المتكبرين، ومن التواضع الاجتماع في الجلسة. ثم قال: وأصول مقامات اليقين تسعة: التوبة، والصبر، والشكر، والرجاء، والخوف، والزهد، والتوكل، والرضى، والمحبة. هذا آخر ما لخصته من كتاب القوت.

فصل: وقال صاحب التعرف في خطبته مشيراً إلى هذه الطائفة: جعل الله فيهم صفوة وأخياراً ونجباء أبراراً، سبقت لهم منه الحسنى، وألزمهم كلمة التقوى، وعزف بنفوسهم عن الدنيا، صدقت مجاهداتهم فنالوا علوم الدراسة، وخلصت عليها معاملاتهم فمنحوا علوم الوراثة، وصفت أسرارهم فأكرموا بصدق الفراسة، ثبتت أقدامهم وزكت أفهامهم، ونارت أعلامهم، فهموا عن الله، وساروا إلى الله، وأعرضوا عما سوى الله، خرق الحجب أنوارهم، جالت حول العرش أسرارهم، وجلت عند ذي العرش أخطارهم، وعميت عما دون العرش أبصارهم، أجسام روحانيون في الأرض، سماويون مع الخلق، ربانيون، نظار، سكوت، غيب، حضار، ملوك تحت أطمار، نزاع قبائل، وأصحاب فضائل، وأنوار دلائل، آذانهم واعية، وأسرارهم صافية، ونعوتهم خافية، صفوة صوفية، نورية، صفية، ودائع الله بين خليقه، وصفوته في بريته، ووصاياه لنبيه، وخباياه عند صفيه، هم في حياته أهل صفته، وبعد وفاته خيار أمته، لم يزل يدعو الأول الثاني، والسابق التالي، بلسان فعله أغناه ذلك عن قوله، حتى قلّ الرغب، وفقد الطلب، فصار الحال أجوبة ومسائل وكتباً ورسائل، فالمعاني لأربابها قريبة، والصدور لفهمها رحيبة، إلى أن ذهب المعنى، وبقي الاسم، وغابت الحقيقة، وحصل الرسم مفرد.

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها[1]

---

(١) هذا البيت للشيخ الكبير أبي بكر الشبلي دلف بن جحدر وهو من البحر الكامل، وتفعيلته:
كمل الجمال من البحور الكامل ... متفاعلن متفاعلن متفاعلن

فصار التحقيق حلية، والتصديق زينة، وادعاه من لم يعرفه، وحلى به من لم يصفه، وأنكره بفعله من أقر به بلسانه، وكتمه بصدقه من أظهره ببيانه، وأدخل فيه ما ليس منه، ونسب إليه ما ليس فيه، فجعل حقه باطلاً، وسمى عالمه جاهلاً، وانفرد المتحقق به ضنًّا به، وسكت الواصف له غيرة عليه، فنفرت القلوب منه وانصرفت النفوس عنه، وذهب العلم وأهله، والبيان وفعله.

فصل: وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني وهو من كبار حفاظ الحديث ومن أهل العلم بالفقه والتصوف كما ترجمه بذلك ابن السبكي والأسنوي في طبقات الشافعية في خطبة كتابه الحلية: أما بعد فقد استعنت بالله وأجبتك إلى ما ابتغيت من جمع كتاب يتضمن أسماء جماعة من أعلام المتحققين من المتصوفة وأئمتهم وترتيب طبقاتهم من النساك ومحجتهم من قرن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم ممن عرف الأدلة، والحقائق، وباشر الأحوال والطرائق، وساكن الرياض والحدائق، وفارق العوارض والعلائق، وتبرأ من المتنطعين والمتعمقين وأهل الدعاوى من المتسومين، ومن الكسالى والمتثبطين المتشبهين بهم في اللباس والمقال والمخالفين لهم في العقيدة والفعال، وذلك لما بلغك من بسط لساننا، وألسنة أهل الفقه والآثار في كل القطر والأمصار في المنتسبين إليهم من الفسقة الفجار، والمباحية والحلولية الكفار، وليس ما حلّ بالكذبة من الوقيعة والإنكار بقادح في منقبة البررة الأخيار، وواضع من درجة الصفوة الأبرار بل في إظهار البراءة من الكذابين والنكير على الخونة البطالين، نزاهة للصادقين، ورفعة للمتحققين، ولو لم نكشف عن مخازي المبطلين ومساويهم ديانة للزمنا إبانتها وإشاعتها حمية وصيانة إذ لأسلافنا في التصوف العلم المنشور والصيت والذكر المشهور فقد كان جدي محمد بن يوسف البنا أحد من نشر الله به ذكر بعض المنقطعين إليه، وعمر به أحوال كثير من المقبلين عليه، وكيف نستجيز نقيصة أولياء الله تعالى ومؤذيهم مؤذن بمحاربة الله تعالى[1]. هذا أخر كلام أبي نعيم.

---

(١) يشير إلى قوله تعالى في الحديث القدسي (كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: مَن عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته» (٣٨ باب التواضع) حديث رقم (٦١٣٧) [٥/ ٢٣٨٤].

فصل: وقال الشيخ قطب الدين محمد بن أحمد بن علي القسطلاني أحد أئمة الشافعية وأحد أئمة الحديث وأحد أئمة التصوف أخذ عن السهروردي واجتمع بالشاذلي وترجمه الأسنوي في الطبقات فقال: كان ممن جمع العلم والعمل والهيبة والورع والكرم وطلب من مكة وفوضت له مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة إلى أن مات بها في المحرم سنة ٦٨٦هـ سنة وثمانين وستمائة هجرية في كتاب له في التصوف سماه (اقتداء الغافل بالعاقل) ما ملخصه:

إن الله بحكمته ونعمته أقام في كل عصر من جعل له لساناً معبراً عن عوارف المعارف مخبراً عن لطائف العواطف، يقطع به ما اتصل به من الجهل، ويخمد به ما ثار من السخف، وينير به ما أظلم من هوس النفس، ويحقق به ما اضطرب من رأي الهوى، وإنا لما دفعنا في وقتنا هذا إلى زمن طال فيه على أرباب الفضائل أرباب الرذائل، وجال فيه بالمقال على الأماثل من ليس لهم بالمماثل، تعين علينا أن نفصح لأهل الوسائل، وتبين لدينا أن نوضح ما التبس على الأفاضل ببيان الحق لمن أعرض عنه لما جهله، وتقريب الطريق عمن قصد أن يصله إلى أن قال:

فلما أمر الله بالاقتفاء لأهل الاصطفاء والاقتداء بذوي الاهتداء، ورأيت ما ظهر في زماننا هذا من اعتناء العوام بأهل الادعاء والاتباع للأهواء لفقد نور العرفان المميز بين مراتب الأصفياء، بذلت ما في الوسع من النصح للجاهل، وأقمت ما رسمت في هذا الموضع مقام الحكم الفاصل، نوضح فيه ما التبس من حال العالم بالجاهل، والناقص بالفاضل، والحالي بالعاطل. ونفصح فيه عن بيان الفرق بين طرق الحق والباطل، في سيرة من ظهر في زي القوم في الخدمة والصورة وهو عن المعنى المعني بالاعتناء به بينهم زائل، وعلى المراعاة لرعونات نفسه عاكف، وفي فسيح المحال في ضلالها جائل، وعن تأدبها بالآداب المرعية في طرق الأبواب المرضية حائل، وقد دفعنا لوقت ظهر فيه اللغط، وكثر فيه الغلط، واشتهر في أفعال أهله الشطط، ولا سيما من أجرى عليه من الصلحاء رسم التصوف، واسم الفقراء، فإن هذا اسم من أعز الأسماء، والمتصف بصفة أهله عظيم قدره عند رب السماء، لكن تلك النعوت المعهودة تبدلت بضدها، والأخلاق المحمودة [illegible] عند عدها، وجلهم بل أجلهم يدعي سلوك الطريق وما مشى على حدها، فلا بمصطلح القوم يعلمون، ولا بما مضى من سيرتهم يعملون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، أشبهوهم بالظاهر في الصورة، وباينوهم في السيرة في المعاني المستورة، فهم كما قال القائل، شعر:

أما الخيام فإنها كخيامهم ... وأرى نساء الحي غير نسائها

ظنوا أن الفقر والتصوف أذكار مشهورة، ومنامات مستورة، وخيالات مذكورة، فتقيدت بهم أذهان محصورة، وأفكار مأسورة، لم تصحب فحول الرجال، ولم تشرب من ماء المعارف الزلال، زلّت منها الأقدام، وتحكمت فيها الأوهام، وجعلوا التلبس بشعار الفقر مأكلة والتقدس بذكر الله بينهم مشغلة، والتآنس بالمعاشرة عن المبادرة للطاعة مكسلة، وتلك حالة لمن تأملها مشكلة، وفتنة لمن تعقلها مذهلة، ولكن طبع الله على قلوبهم فكانوا من الغافلين، وختم على سمعهم فلم يكونوا للنصيحة بالقائلين، ولا للعدول عن الضلال للهدى بالعائدين، فقد سمعت والدي أبا العباس القسطلاني يقول: سمعت الشيخ أبا عبد الله القرشي يقول: لو لم ألقَ من المشايخ من لقيت لتوهمت أن الطريق ما عليه الناس اليوم، وما عند الناس من الطريق إلا الاسم، إلا من سلك منهم على التحقيق، فإذا قال هذا في عصره فما ظنك بهذا العصر، هذا كله كلام القطب القسطلاني. ثم قال:

اعلم أن الله أقام هذا الدين وأيد هذه الشريعة المطهرة بطائفتين علماء الظاهر وعلماء الباطن، ولما شاهدنا في هذه الطائفة الخلل في عصرنا حدانا ذلك على النصح والتفقه لمن يرغب في الاهتداء ببيان رتبة الداعين وما يقصده من يعد لجناب الله من جملة الساعين، أما رتبة الداعي فإنها من أعلا الرتب وهي رتبة الأنبياء والأولياء والحكماء كما قال الله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: ١٢٥] فسعت هذه الطائفة إلى الدعاء إلى الله، ورأت أن ذلك من باب تكثير الخير في الوجود، وتوقفت طائفة عن ذلك لاشتغالها في حق نفسها بما هو الأولى من التوجه لها، والأولى أن يقال إن كانت الهمة قد اشتغلت بالله حتى أقيمت داعية له بغير معاناة أسباب من خارج، فإنه يتعين الإجابة، وإن كانت الهمة على الدعاء عاملة فإنها محجوبة جاهلة ولحظوظها من طلب الظهور واصلة، وقد حصل الجهل في زماننا هذا برتبة الداعي والنظر في ذلك من الأمر المهم في الدين لكي لا يلتبس طريق المحقين بطريق المبطلين، فإذن للتمييز بين الدعاة فائدة عظيمة في هذا الشأن.

فالدعاة أربعة: داع بالله إلى الله، وداع بالله إلى سنة الله، وداع بالله إلى حكمة الله، وداع إلى حظوظ نفسه بطريق الله.

فالداعي إلى الله هو المقرب الملحوظ المفارق للحظوظ، يدعو إلى الصدق في العمل والإخلاص، ويهدي من ضلّ إلى طريق المعرفة بالله والاختصاص. **والداعي إلى سنة الله** وهي العلم بالأحكام من الحلال والحرام مبصر للسالكين بطريق المهتدين

السابقين والداعي إلى حكمة الله هو الداعي إلى العلم بأحكام الظاهر والباطن من علم الشريعة والحقيقة، ببيان علم الخواطر وعللها وصفات النفوس وآفاتها، وطرق البحث عن دسائسها.

فالداعي إلى الله أقلهم تابعاً لمشقة ما دعا إليه، والداعي إلى سنة الله تابعه كثير لممازجة النفس فيما تأتي به من الأفعال وطلب الأعواض على الأعمال، والداعي إلى حكمة الله أقل تابعاً منه لعزة الوصول إلى ما يدعو إليه من طهارة النفس وتزكيتها.

وأما الرابع وهو **الداعي لحظوظ نفسه** بطريق ربه فباطنه معلول بالآفات، وسره مشحون بالجهالات، إلى أن قال:

ثم الدعاة على وجوه: **أحدها**: داع إلى الغنى بالله من حيث اعتناؤه بالإيجاد له ابتداء كما قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] **وثانيها**: داع بالفقر إلى الله فإن ذلك وظيفة العبودية، **وثالثها**: داع بالأخلاق الرحيمة كما قيل: تخلّقوا بأخلاق الله، أي من الرحمة والحلم والجود والعفو، ونحو ذلك وهذه هي أجل الدعوات، ثم قال:

وإن طريق القوم لما اندرس رسمه وبقي اسمه ذهبت عصابته وصاروا آحاداً في البلاد وأفراداً في الجِد والاجتهاد، فهم خاصة الله من خلقه، وخلاصته المختارون في أرضه لإقامة حقه؛ طهّر أسرارهم ونوّر أفكارهم، فهم الداعون إلى بابه، المعرفون بعلى جنابه، الموقفون على ما أشكل من علم الطريق على أربابه، وقد حرس الله هذه الطائفة عن امتداد يد المتلاعب بما أقام لها من الرؤساء العالمين بها، يذبون عنها طغى الطاغي وجهل الجاهل، ويميزون بين المنقطع عن الله والواصل، ويعرفون سلوك الطريق لطالبه، ويوقفون على الصواب من لم يهتد إلى مذاهبه، لا يبالون عن اعتراض جاهل أو عالم، ولا تأخذهم في الله لومة لائم.

وعلوم هذه الطائفة تشارك باقي العلوم في العقل والنقل المفهوم، وتتميز عنها بالذوق والمنازلة والوجد في المعاملة، إلى أن قال:

واعلم أن طائفة المتوجهين امتحنوا بثلاثة أصناف ﴿يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف: ٤٥] بمنكر لطريقهم وأحوالهم، وبمعترف بها عالم ذلق اللسان طلق البيان، أدخل فيها ما ليس منها، وأوهم أن ذلك العلم هو عين التحقيق المتعين فيها، وبمعترف بها جاهل بآدابها وشروطها اتخذ أتباعاً وقرر لهم أوضاعاً.

الصنف الأول: المنكر لعلوم هذه الطائفة الواقف مع غرور نفسه فهذا عدو ظاهر واجتنابه سهل.

الصنف الثاني: العالم المعترف ظاهراً بالطريق، المغترف بزعمه من بحر التحقيق الذي اشتغل بعلوم الأوائل، وأوهم أنها داخلة في علوم القوم راجحة في معتقده على علوم الشريعة، أعطي لساناً معبراً عن مقاصده مترجماً عما في ضميره، واصطلح مع نفسه وأتباعه مصطلحاً في أوضاعه، وقرر في أذهانهم أنه المشار إليه في عصره، وأن المدار عليه في طيه للعلوم ونشره، وأن الخلائق كلهم يغترفون العلوم من بحره، وهم جماعة زعموا أنهم جاسوا خلال ديار المعارف فأفسدوا بذلك عقائد من صحبهم من الطوائف، واعتقدوا قدم الأرواح والأشباح، وامتزاج الموجودات المتماثلة والمتضادة أزلاً وأبداً، وأنَّ كل شيء متشكل في الصورة هو عين المتشكل الآخر كالفيل المتشكل مع البقة إلى هذيان لا يقوله محصل ولا يعتمد عليه من هو للفرق بين الحق والباطل متأمل، وأوهموا أن ذلك هو الوحدة، وأنه عين التحقيق المشار إليه، وهو علم الإحاطة الذي من لم يعتقد صحته قصر فهمه، وكثر وهمه، وكان محجوباً عن العلوم الإلهية والمكاشفات الغيبية، وهذا القول منهم دعوى لا برهان يعضدها، ولا إيمان يشيدها، اغتر بها من استمع ما ألقوه إليه، ونبا عنها فهم من استقر الحق لديه، وهؤلاء هم مباينون لعلم التحقيق، محافظون على المباعدة لدقيق التوفيق، تخطوا بزخرف المقال رقاب أرباب المقامات والأحوال، واعتقدوا فيهم أنهم من الجهال الضلال، فكانوا نقمة على المستمعين وفتنة على المتوجهين.

الصنف الثالث: الجاهل بعلوم هذه العصابة الذي جعل التلبس بما هو شعارهم وسيلة إلى أغراضه وبلوغ مرامه، فمن لم يشتغل بعلوم النفوس وآفاتها ومصادرها ومواردها في صفاتها، ويعمل على تزكية نفسه وطهارتها، فإنه يعد لمعرفة علم السلوك من الجاهلين، ولا يكون لهذه الطريقة من الوارثين.

فهؤلاء الأصناف المذكورون فتنة على العوام والخواص، ومحنة يبعد منها، ولا سيما في هذا الوقت الخاص. فإذا تبين وصف هؤلاء للعاقل تعين عليه أن يعلم وصف حال الرجل الكامل، وهو الشخص الذي فوتح قلبه بإقبال الإنابة، فدخل من باب التوبة إلى الإجابة، ثم جاهد نفسه في خلوته وعزلته بالانفراد، ثم صاحب التقوى والورع والزهد في سيره، ثم ترقى إلى المقامات والأحوال، ثم إلى مقام المعرفة، ثم عمل على ترك مراداته واجتناب الملاحظة لحظوظه، فسار عبداً حقاً آثر الله على ما سواه في سره ونجواه، ولم يعتمد في أمره شيئاً من هواه، وهذا الصنف هو الذي

رحل في الطريق بالأدب، فأمن في الفريق من العطب، ولم يتوثب إلى طلب الرتب، فإن هذه الطائفة لم تأخذ في هذا المنهج عن جهالة، بل عن علم ودلالة، وقد تقدم لها مشايخ فحول وأئمة جمعوا بين علمي الظاهر والباطن من الفروع والأصول، إلى أن قال:

وحاصل هذه الطريق يرجع إلى نقد ووجد وجد بالله وفقد لما سواه، ثم قال: والعجب ممن هو جاهل، ربّى نفسه وصحب من هو مثله، ولم يتأدب بآداب الظاهر الذي هو الشرع، ولا بآداب الباطن الذي هو مراقبة الخواطر، كيف يتخيل في ذهنه أن يكون داعياً إلى الله مؤدباً لعباد الله وقد تقدم قبلنا من مشايخ الطريق الكلام على من تعاطى في سيرة غير سيرتهم، وتقاضى بأفعاله ما يعد به خارجاً عن طريقتهم.

وقال أبو بكر محمد بن عبد العزيز المروزي: سمعت الواسطي هو أبو بكر محمد بن موسى يقول: جعلوا سوء أدبهم أخلاقاً، وشَرَه نفوسهم انبساطاً، ودناءة الهمم جلادة، فعمُوا عن الطريق، وسلكوا فيه المضيق.

وقال أبو بكر الطمستاني الطريق واضح، والكتاب والسنة بين أظهرنا، وفضل الصحابة معلوم بسبقهم إلى الهجرة وبصحبتهم، فمن صحب منا الكتاب والسنة وتغرب عن نفسه والخلق وهاجر بقلبه إلى الله فهو الصادق المصيب.

وقال أبو العباس الدينوري: نقضوا أركان التصوف، وهدموا سبلها وغيروا معانيها بأسماء أحدثوها، سموا الطمع إخلاصاً، والخروج عن الحق شطحاً، والتلذذ بالمذموم صولة، والبخل جلادة، والسؤال عملاً، وبذاءة اللسان ملامة، وما كان هذا طريق القوم، ولو تتبعنا أقوال المشايخ في ذلك أطلنا.

ثم قال: وقد ألّف مشايخ من هذه الطائفة كتباً ذكروا فيها الأسانيد كأبي نصر عبد الله بن علي السراج في كتاب اللمع، وأبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين السلمي في كتاب مقامات الأولياء، وأبي القاسم القشيري في كتاب الرسالة، وأبي بكر محمد بن علي الغازي المطوعي في كتاب المقالات، وغيرهم. وإنما فعلوا ذلك إرغاماً لأنف منكر تعاطى رد مقالهم، ورداً على مدعي أن هذا العلم لم يرد به الكتاب والسنة، فقصدوا أنهم قد اشتغلوا بما اشتغل به أهل الظاهر من علم الإسناد وأنهم فاتوهم بما لم يصل إليه فهمهم من علم أهل القرب والوداد.

ثم قال: واعلم أن العلم منه المحمود والمذموم؛ فالمحمود: ما أدى إلى طهارة النفس وتزكيتها. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾

[الشمس: ٩، ١٠] والمذموم: ما دعاها إلى الكبر والعجب وحب الشرف والرفعة والحسد وغير ذلك.

والعلوم المأمور بطلبها قسمان: علم بالله، وعلم بأحكام الله، **فالأول**: العلم بأسمائه تعالى وصفاته وأفعاله وما يجب ويجوز ويستحيل في حقه، **والثاني**: **قسمان**: علم بأحكام الدنيا المتعلقة بأحكام المكلفين، وعلم بأحكام الآخرة في المنعمين والمعذبين.

ثم **أحكام المكلفين** على ضربين: ظاهر وباطن، **أما الظاهر**: فعلم أحكام الأمر والنهي وهو علم الفقه، وأما الباطن: فعلم الخواطر وتمييز الصحيح منها من الفاسد والممدوح من المذموم، إلى أن قال:

ومدار **علم الباطن** على الخشية، فعلى عظم الخشية في الصدر وتمكينها من القلب تتكثر المعارف فيه وتتنزل السكينة عليه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وعلى قدر تمكن الخشية من القلب يكون العلم بالله سبحانه كما قال ﷺ: **«والله إني لأعرفكم بالله وأشدكم خوفاً منه»**[١] ولا تكون الخشية إلا للعالم بالله، فالخشية باعثة على الجد في العمل، قاطعة لما اتصل من الأمل، زائدة فيما تحصل في القلب من الوجل.

وقال سهل [بن عبد الله التستري]: الدنيا كلها جهل إلا ما كان منها علماً، والعلم كله حجة إلا ما كان منه عملاً، والعمل كله موقوف إلا ما كان منه إخلاصاً، والإخلاص كله مردود إلا ما كان منه بالسنة، فإذا علم شرف الباطن فإنه يدور على أصلين: علم بالله وتصرفاته في مصنوعاته، وإحكامه لما أتقن من مخترعاته، وعلم بالنفوس ومراتبها وتمامها ونقصها ومحاسنها ومعايبها، ولأجل هذا قال تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الذاريات: ٢١].

وأحكام النفوس منحصرة في وصفين: **الأول**: إزالة النقص مثل مجانبة الحسد، والكبر، والغضب، والغل، والغش، والطمع، والحقد، والعجز، والبخل، والشح، والرياء، والخداع، والحرص، والمكر، والقحة، والخيانة، والقسوة، والغلظة، والغفلة، والعجلة، والحدة، والفخر، والخيلاء، والمباهاة، والمنافسة، واحتقار الخلق، وسوء الأدب، وسوء الخلق، وحب الثناء، والرغبة في الشكر، والتصنع

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

للخلق، واتباع الهوى، والتجبر، وطول الأمل، والشر، والبطر، والبغي، والظلم، والعناد، والغيبة، والنميمة، وطلب المغالبة بالباطل، وذكر معايب الخلق، وخلو القلب من الحزن، والفرح بالعاجل، والحزن على الغائب، والاعتراض على تدبير الله، وما ضاهى ذلك من الخصال الذميمة والأفعال القبيحة. فحق على كل مسلم أن يتفقد نفسه منها وينزهها عنها، فإنها داعية إلى الهلكات، ومنها ينشأ رد الأعمال الصالحات.

الثاني: تحصيل الكمال كمجاهدة النفس، والتقوى، والورع، والزهد، والشكر، والصبر، والقناعة، والرضى، واليقين، والتوكل، والتفويض، والتسليم، والإحسان، والصدق، والإخلاص، والنية، ورؤية المنة لله، والاحتساب في الأعمال، والسخاء، والشفقة، وسلامة الصدر، والمبادرة للأمر، والخشوع، والتواضع، والمراقبة، والمحاسبة، وحسن الظن بالله، وحسن الطاعة، وحسن الخلق، وحسن المعاشرة للخلق، وحسن المعرفة بالله، وغير ذلك من صفات الكمال. فإذا نفى المذموم وأثبت المحمود من هذه الصفات ترقَّى عنها إلى التوبة عن الزلات، ثم إلى المحاسبة لنفسه على الهفوات، ثم إلى المراقبة إلى ما يصدر منه من الخطرات، ثم إلى الفكرة فيما يتعلق بالله من صفات الفعل وصفات الذات، ثم إلى التخلق بالصفات، فيتخلق من الرحمة باسمه الرحيم، ومن الإحسان باسمه المحسن، ومن نفع العباد باسمه النافع، ومن المضرة لمن يستحق الضر من الكفار بالقتل والسبي والأسر، ومن المسلمين العصاة بإقامة الحدود ونحوها باسمه الضار، وكذلك باقي الأسماء يتخلق بكل اسم منها فيما هو به لائق، فإذا حصل منها التخلق المذكور ترقى إلى الاعتبار بتأثيرها في الموجودات ووجود سراية أسرارها في المصنوعات، ثم ترقى عن ذلك إلى الاعتبار في نعمة الإيجاد وسبق الخذلان والعنايات، ثم ترقى عن ذلك إلى الفناء في شهود الذات الصادر عنها أنواع المبدعات، ثم ترقى عن رؤية الإرادات وفتنة المردات، ثم ألقى نفسه بين يدي مدبرها كأنه بعض الجمادات، فهنالك تنتهي غاية الرغبات، وتتوقف مفكرة عن منازعات الطلبات، وقد أوضح معنى ما ذكرناه من تقدمنا من السادات.

قال سهل بن عبد الله: أول ما يؤمر به المريد التبري من الحركات المذمومة، ثم التنقل إلى الحركات المحمودة، ثم التفرد لأمر الله، ثم التوقف، ثم الرشاد، ثم الفناء، ثم البيان، ثم الثناء، ثم القرب، ثم المناجاة، ثم المصافاة، ثم الموالاة، ولا يستقر هذا بقلبه حتى يرجع إلى إيمانه فيكون العلم والقدرة زاده، والرضى والتسليم

مراده، والتفويض والتوكل حاله، ثم يمن الله بعد هذا بالمعرفة فيكون مقامه عند الله مقام المتبرئين من الحول والقوة، وهذا مقام حملة العرش وليس بعده مقام.

وقال يحيى بن معاذ: قناطر العالمين سبع أولها: التوبة، ثم الزهد، ثم الخوف، ثم الشوق، ثم الرضى، ثم المحبة، ثم المعرفة. بالتوبة تطهروا من الذنوب، وبالزهد زايلوا الدنيا، وبالخوف جاوزوا قناطر النار، وبالشوق دخلوا الجنة، وبالرضى لبسوا قراطق العبودية، وبالحب وجدوا طعم النعيم، وبالمعرفة وصلوا إلى ما طلبوا من الدنيا والآخرة، فإذا اعتمد ما ذكرناه من الحالات فقد انطوى له في ذلك علم الأحوال والمقامات، ثم التوصل إلى هذه الحالات تارة يكون عن جذب رباني بأن يقذف الله في قلبه ذلك بغير موقف ولا معرف، وتارة عن سلوك عرفاني فيكون عن مبصر بحكم الطريق مخبر عن علم الفريق، إلى أن قال: فمن كانت لله به عناية ألهمه التفقد لخواطره، فيتقي المكروه ويثبت المحمود، فيكون بذلك لربه مطيعاً، ومن أهمل نفسه وغفل عنها واتبع هواجسها وعمل على مقاصدها هلك مع الهالكين. والعجب بالآراء والعلوم والأعمال أعظم آفة ترد على ذوي المراتب.

قال أبو عثمان الحيري: العجب يتولد عن رؤية النفس وذكرها، ورؤية الخلق وذكرهم.

وقال يوسف بن الحسين: يتولد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المنّة فيما يجري الله لك من الطاعات، ثم قال: واعلموا أن الناس قبلنا صنفوا فيما يلزم من يسلك هذا الطريق من الآداب وما يتعين عليه من المراعاة لمخالفة العوائد في الوقوف مع الحظوظ والأسباب، وما يثمر له ذلك من الحسنى في دار المآب، فلو اهتدى السالكون بشيء من طرق الصواب نظروا في كتبهم وسمعوا ما ألقوه لهم من الخطاب لكنهم قالوا: إن نظر الفقير في الكتب وطلب العلم من أعظم الحجاب، وما ذكروه فهو كلمة حق أريد بها باطل، وصفة نقص تحلّى بها من هو عن الكمال عاطل، وإنما ذكر أهل الطريق ذلك في قوم من صفتهم أنهم حصلوا ما تميزوا به عن أهل هذا الشأن من الشريعة والحقيقة، فاستغنوا عن النظر في غير ذاتهم، وفتحوا عن الغيب بما يشهد لهم بنجاتهم، فهم بالله مع الله معرضون عن ملاحظة صفاتهم، طهروا عن ملاحظة أنجاس الأغيار، وستروا عن الشهوة لما صفا وقتهم عن الأكدار، فهم كما قال بعض الألباء: طنين الذباب وصرير الباب يشوش على ذوي الألباب، فمن كان كذلك فإنه مشغول بما هو فيه عن النظر في الكتاب، وأما من هو عري عن علم الظاهر والباطن فحقه أن يعلم ما يحتاج إليه في الطريق التي يسلكها، فإن أبى واستكبر فإنه بعيد من الوصول إلى منهج السعادة.

ثم قال: اعلم أن العلوم المطلوبة تنقسم إلى علم وعمل كالفقه والنحو والطب وغير ذلك، وكذلك علم هذه الطائفة ينقسم إلى علم بمصطلح أهلها وإلى عمل بأخلاقها، وقد اختلف أهل الطريق في الفقر والتصوف، والفقير والصوفي فهل هما سواء أو أحدهما أتم من الآخر، فقال قوم: هما سواء، وقيل: الفقر أعلى لأن الكتاب والسنة نطقا به.

واسم التصوف محدث لم يكن يعهد في السلف الصالح إطلاقه، والذي عليه أكثر أئمة هذا الشأن ورجحه شيخنا الشهاب السهروردي أن اسم التصوف والصوفي أعلى مرتبة وأولى نسبة وأخص بالمعنى المراد، لأن الفقير يطلق عموماً على من افتقر من المال وخصوصاً على من افتقر بكليته إلى الله في جميع الأحوال، والتصوف إنما يطلق على الفقير الخاص بزيادة أوصاف أخر، وأيضاً فالفقير هو الشخص المتمسك بعروة فقره المستشرف بطلب أعواض المثوبات على صبره وشكره بملابسته له عند الله إلى تعظيم قدره الواقف معه على قدم نفعه فيه وضره.

وأما الصوفي فهو الفقير الذي أسقط الوقوف مع الأعواض، وعمل على الصد عن الموجودات المنقسمة إلى الجواهر والأعراض، وقطع العلائق والعوائق، وواصل الفناء عن التطلع لغير الخالق، وباين الأكوان والأزمان قلباً وقالباً وبقي بالله ملاحظاً طالباً، وترك نفسه عن التطلع لها جانباً، وجعل مع الخلق جميل الخلق له صاحباً، ولم يتقيد بمقام أو حال، فيكون في صفقة بيعته خائباً، فإذا علم الفرق بين الفريقين تبين الحكم على الطريقين، ثم إنه قد كثر التشبه في وقتنا بالطائفتين، وعز أرباب البصائر في التمييز بين الجهتين، فقوم حكوا منهم الأفعال في الصور وباينوهم في المعاني والأثر، فتجردوا ظاهراً إيهاماً وتعلقوا باطناً أحكاماً، فسعوا في تحصيل لذاتهم وشهواتهم، وما تعبدوا بأحكام الطريق في حركاتهم وسكناتهم، وأفسدوا من تعلق بهم لإنالتهم لطلباتهم، وقوم نطقوا باللسان الخارج عن المصطلح، وقرروا في الأذهان أن ذلك أكمل المعنى المقترح، وصنفوا على مقاصدهم كتباً كثيرة خارجة عن طريق القوم داخلة فريق الذم لمن تعاطاها، واللوم مجانبة لعقائد الإيمان الصحيحة مقررة لقواعد البهتان الصريحة محررة لقواعد البرهان المنتجة، قد بنيت على قواعد تلقيت بالتقليد، فوقعت في النقص عن طلب المزيد، وأوهموا أن ذلك عين المراد بين هذه الطائفة وإن لم يفهم ذلك المصطلح، فإن أذهانهم واثقة، وعكفوا على علم الفلسفة تدويناً وسموه بالحقيقة بالتحقيق والإحاطة وهماً وتخميناً لا علماً ويقيناً، وعدلوا عن التصوف وما حصل لهم شيء من التعرف. إلى أن قال:

ونهاية علم التصوف هو اطراح العادات ومخالفة الإرادات مسلماً مع من له الأمر، وهو الفاني في رؤية الأشياء بالمنشىء لها والفاني في فنائه عن رؤية فنائه، فيبقى بالله باقياً وهو المحبوب الملحوظ والمربوب المحفوظ كما قال ﷺ حكاية عن ربه: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»[1] الحديث، إلى أن قال: ومن طريق القوم أن لهم في كل عمل نية لتكون قلوبهم حاضرة فيما يعانون من الأفعال والأقوال حتى يبقى ذلك عادة لهم، فتتمرن النفس على ذلك، فلا يطغى ولا يغفل ولا يسهو، ثم قال: واعلم أن كل طائفة انتمت للاشتغال بعلم فلا بد لها من مصطلح في ذلك العلم حتى يتميز به ويقع به التخاطب بينهم، كما وقع لأرباب الصنائع كالتجارة والحياكة وغير ذلك، فافتقرت هذه الطائفة إلى مصطلح يعبر به عن معلومها في مقاصدها حتى يقع الفرق بين من انتمى إليها وتخلّق بأخلاقها وتأدّب بطريقها ومارس علومها، وبين من كان خالياً منها معرضاً عنها آخذاً في غير منهجها أو معاشراً لها، قد تزيّا بزيها ولم تسم همته إلى طلب علمها وفهم مصطلحها، فظن من رآه أنه من علمائها، ومع ذلك فإن العبارة والإشارة لا تفيد لما يراد للنفس الأمّارة، وإنما يفيدها ذلك ما تعامل به من الإهانة لها والحقارة.

وقال بعض المتكلمين لأبي العباس ابن عطاء: ما بالكم أيها الصوفية اشتققتم ألفاظاً أغربتم بها على السامعين وخرجتم عن اللسان المعتاد؟ فقال: ما قلنا ذلك إلا لغيرتنا عليه لعزته علينا حتى لا يشير به غير طائفتنا.

فمن ألفاظهم التي اصطلحوا عليها الوقت والمقام والحال والخاطر والوارد والشاهد والسر والنفس والغلبة والقبض والبسط والجمع والفرق والفناء والبقاء في ألفاظ أخر مبينة في الكتب الموضوعة في هذا الشأن.

هذا آخر ما لخصته من كتاب القسطلاني.

فصل: قال الغزالي في الإحياء في باب الغرور وبيان أصناف المغترين: الصنف الثالث: **المتصوفة** وما أغلب الغرور عليهم، والمغترون منهم فرق: ففرقة منهم متصوفة أهل الزمان إلا من عصمه الله، اغتروا بالزي والهيئة فشاركوا الصادقين من الصوفية في زيهم وهيئتهم وفي ألفاظهم وفي آدابهم وقراءتهم واصطلاحاتهم وفي أحوالهم الظاهرة في السماع والرقص والطهارة والصلاة والجلوس على السجادات مع

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصعداء، وفي خوض الصوت في الحديث، إلى غير ذلك من الشمائل والهيئات.

فلما تكلفوا هذه الأمور وتشبهوا بهم فيها ظنوا أنهم صوفية ولم يتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل التصوف، ولو فرغوا عن جميعها لما جاز لهم أن يعدوا أنفسهم من الصوفية، كيف ولم يحوموا حولها، ولم يسوموا أنفسهم شيئاً منها بل تكالبوا على الحرام والشبهات وأموال السلاطين، ويتنافسون في الرغيف والفلس والحبة، ويتحاسدون على النقير والقطمير، ويمزق بعضهم أعراض بعض مهما خالفه في شيء من غرضه، وهؤلاء غرورهم ظاهر.

وفرقة **أخرى** زادت على هؤلاء في الغرور إذ شق عليهم الاقتداء بهم في بذاذة الثياب والرضى بالدون، وأرادت أن تتظاهر بالتصوف، ولم يجدوا بداً من التزيي بزيهم، فتركوا الحرير والأبريسم وطلبوا المرقعات النفيسة والفوط الرفيعة والسجادات المصبوغة، ولبسوا من الثياب ما هو أرفع قيمة من الحرير والإبريسم، وظن أحدهم مع ذلك أنه متصوف بمجرد لون الثوب وكونه مرقعاً، ونسي أنهم لوثوا الثياب لئلا يطول عليهم غسلها كل ساعة لإزالة الوسخ، وإنما لبسوا المرقعات إذ كانت ثيابهم مخرقة، فكانوا يرقعونها ولا يلبسون الجديد، فأما تقطيع الفوط الرفيعة قطعة قطعة وخياطة المرقعات منها فمن أين يشبه ما اعتادوه، فهؤلاء أظهر حماقة من كافة المغرورين فإنهم يتنعمون بنفيس الثياب ولذيذ الأطعمة، ويطلبون رغد العيش ويأكلون أموال السلاطين ولا يجتنبون المعاصي الظاهرة فضلاً عن الباطنة، وهم مع ذلك يظنون بأنفسهم الخير، وشر هؤلاء مما يتعدى إلى الخلق إذ يهلك من يقتدي بهم ومن لا يقتدي بهم تفسد عقيدته في أهل التصوف كافة، إذ يظن أن جميعهم كانوا من جنس هؤلاء، فيطول اللسان في الصادقين منهم، وكل ذلك من شؤم المتشبهين وشرهم، وفرقة أخرى ادعت علم المعرفة ومشاهدة الحق ومجاوزة المقامات والأحوال والملازمة في عين الشهود والوصول إلى القرب، ولا يعرف هذه الأمور إلا بالأسامي والألفاظ، لأنه تلقف من ألفاظهم كلمات فهو يرددها ويظن أن ذلك من أعلى علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء فضلاً عن العوام، حتى إن الفلاح يترك فلاحته، والحائك يترك حياكته ويلازمهم أياماً معدودة ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة، فهو يرددها كأنه يتكلم عن الوحي ويخبر عن سر الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد والعلماء فيقول

في العباد: إنهم أجراء متعبون، ويقول في العلماء: إنهم بالحديث عن الله محجوبون، ويدعي لنفسه أنه الواصل إلى الحق، وأنه من المقربين، وهو عند الله من الفُجّار المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين، لم يُحكم قط علماً، ولم يُهذب خلقاً، ولم يرتب عملاً، ولم يراقب قلباً سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه.

وفرقة منهم وقعت في الإباحة، فطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام، وسووا بين الحلال والحرام، فبعضهم يزعم أن الله مستغنٍ عن عملي فلِمَ أتعب، وبعضهم يقول: قد كلّف الناس تطهير القلوب عن الشهوات وعن حب الدنيا وذلك محال، فقد كلفوا ما لا يمكن، وإنما يغتر به من لم يجرب، وأما نحن فقد جربنا وأدركنا أن ذلك محال، ولا يعلم الأحمق أن الناس لم يكلفوا قلع الشهوة والغضب من أصلهما، بل إنما كلفوا قلع مادتهما بحيث ينقاد كل واحد منهما لحكم العقل والشرع.

وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا قدر لها، وإنما النظر إلى القلوب وقلوبنا والهة بحب الله، واصلة إلى المعرفة، وإنما نخوض في الدنيا بأبداننا، وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب، ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، فإن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها، ويرفعون درجة أنفسهم عن درجة الأنبياء إذ كانوا يبكون على أدنى شيء وينوحون عليه سنين متوالية.

وأصناف غرور أهل الإباحة من المتشبهين بالصوفية لا تحصى، وكل ذلك بناء على أغاليط ووساوس يخدعهم الشيطان بها لاشتغالهم بالمجاهدة قبل إحكام العلم، ومن غير اقتداء بشيخ متقن في الدين والعلم، صالح للاقتداء به، وإحصاء أصنافهم يطول.

وفرقة أخرى جاوزت حد هؤلاء، وأحسنت الأعمال، وطلبت الحلال، واشتغلت بتفقد القلب، وصار أحدهم يدعي المقامات من الزهد والتوكل والرضى والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات وشروطها وعلاماتها وآفاتها، فمنهم من يدعي الوجد والحب لله ويزعم أنه واله بالله ولعله قد تخيل في الله خيالات هي بدعة أو كفر، فيدعي حب الله قبل معرفته، ثم إنه لا يخلو عن مفارقة ما يكرهه الله، وعن إيثار هوى نفسه على أمر الله وعن ترك بعض الأمور حياء من الخلق ولو خلا ما تركه حياء من الله.

وفرقة أخرى ضيقت على نفسها في أمر القوت حتى طلبت منه الحلال الخالص وأهملوا تفقد القلب والجوارح في غير هذه الخصلة الواحدة ومنهم من أهمل الحلال في مطعمه وملبسه ومكسبه، وأخذ يتعمق في غير ذلك، وليس يدري المسكين أن الله ليس يرضى من عبده بطلب الحلال فقط، ولا يرضى بسائر الأعمال دون طلب الحلال، بل لا يرضيه إلا تفقد جميع الطاعات والمعاصي، فمن ظن أن بعض هذه الأمور تكفيه وتنجيه فهو مغرور، هذا كله كلام الغزالي بلفظه.

وأقول: إذا اعتبرت من يدعي التصوف من أهل العصر لم تجده يخرج عن بعض هذه الفرق إلا أفراداً معدودة، فإنك ترى الواحد منهم يدعي أنه بلغ في التصوف الغاية، فإذا جالسته وحدثته أول ما يشكو لك ضيق رزقه، فهذا أول سخطه على الله وأول جهله بالله، أما السخط فلأنه لو رضي بما رزقه الله وقسمه له لم يَشْكُ، إذ الراضي لا يشكو، وأما الجاهل فإنه شكا إلى عاجز ليس بيده إزالة الشكوى، فلو عرف الله لعلم أن الأمور كلها بيده وليس بيد غيره شيء منها، وربما توسم في الذي يشكو له أنه من جهة الملك أو بعض الأمراء فتخيل له نفسه أن الشكوى له تفيد أنه يرفع حاله إلى ذلك الكبير ليمده بشيء، وهذا أشد جهلاً حيث فاوت بين الخلق، فلو عرف الله لعلم أن الخلق كلهم سواء في عدم القدرة، وإنما الله هو المجري للأرزاق على يد من يشاء كيف يشاء، فإن قال بجهله فأين الأسباب وقد حضّ الشرع على الأسباب؟ قلنا: من يدعي التجريد لا يذكر الأسباب، فإن الله أقام الخلق قسمين: قسم في الأسباب وقسم في التجريد، فمن ادعى أنه في رتبة التجريد، ثم أخذ يذكر الأسباب فهو مدع كذاب، ثم الأسباب لم تنحصر في سؤال الملوك ولا غيرهم، فهلا ذهب إن كان صادقاً في دعواه التصوف فأخذ حبلاً واحتطب وحمل على رأسه وباع واقتات منه كما أمر بذلك الحديث، ما منعه من ذلك إلا التكبر وعلو النفس، ومبنى التصوف على كسرها والله المستعان.

ومنهم من تراه يتتبع عيوب الخلق فيذكرها كأنه فرغ من عيوب نفسه، وهذا إنما يصلح لمن أذن له في الكلام فيذكرها على جهة الإبهام من غير تعيين أحد، كما يذكر الطبيب المرض وتشخيصه ثم يذكر علاجه ودواءه، وإنما يحتاج إلى ذكرها في رجل معين إذا كان على وجه النصح والتحذير من القرب منه لمحض حق الله تعالى لا لحظ نفسه.

ومنهم - وهو أعجبهم عندي حالاً - من ظن أن التصوف قراءة الكتب المؤلفة فيه والبحث فيها، وهذا غلط كبير، إنما التصوف السعي في إصلاح القلب وتطهيره من الأمراض الخبيثة وتهذيب النفس وتفقد عيوبها، وما رأيت أحداً قط يأتي فيذكر شيئاً من أمراض قلبه ويسأل عن دوائه، ولا يقول أحد عندي تثاقل عن العبادة فكيف

الطريق إلى حصول النشاط؟ ولا أجد عندي ميلاً إلا إلى الدنيا، فكيف العلاج في إخراجه عن القلب، ولا أجد في نفسي إلا علواً وحسداً وحرصاً أو حقداً أو رياءً وعجباً، أو في لساني بذاءة أو انطلاقاً، أو نحو ذلك فكيف السبيل إلى إزالته؟ أو كان لي ورد فكلّت نفسي وانقطعت عنه فكيف أعود إليه؟ أو عودني الله بالتحفظ ثم بدت مني زلة فكيف الرجوع؟ لا ترى أحداً يسأل عن شيء من ذلك، وهذا هو مبدأ التصوف، وهو الذي يهتم به أولاً، فما ترى الواحد منهم أول ما يجالسك إلا يتكلم في الروح وإشراق القلب وإفاضة الأنوار والمطالعة بالأسرار، والخوض فيما لا يعنيه ولا طلب منه ولا كلف به ولا أهل له، وهو عنه بمنقطع الثرى، ولم يكن يتكلم فيه إلا أولئك الكبار الذين وصلوا إلى درجة الصديقية، فيتكلمون فيه مع أمثالهم بما هو عندهم معلوم واضح لا إشكال فيه، فما مثل الواحد ممن ذكرت إلا مثل المملوك الجلف الذي سلمه السلطان إلى المعلم ليعلمه الرمح والرمي بالنشاب، فترك ما طلب منه وأخذ يسأل من المعلم عن أحوال المملكة وكيف يديرها ـ سؤال من هو سلطان ـ وأخذ يستشير ماذا يفعل؟ ماذا يولي من النواب وأرباب الوظائف؟ وليس لمثل هؤلاء جواب إلا الترك والإعراض وعدم التشاغل بجوابهم. نعم إن تلمح من أحد منهم أنه يقبل النصيحة وتنجع فيه الموعظة نهاه عن الخوض في ذلك، وبيّن له أن المهم والمطلوب منه خلاف ذلك.

قال أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي الحكيم: الناس صنفان: **فصنف منهم** يعبدون الله على البر والتقوى، فهم محتاجون إلى خير الزمان وإقباله ودولة الحق. وصنف منهم أهل اليقين يعبدون الله على وفاء التوحيد عن كشف الغطاء وقطع الأسباب فهم غير ملتفتين إلى إقبال الزمان وإدباره، ولا يضرهم إدباره وهو قول النبي ﷺ: **«إن لله عباداً يغذوهم برحمته يميتهم في عافية تمر بهم الفتن كقطع الليل المظلم لا تضرهم»**(١) وقوله ﷺ: **«يكون في أمتي فتن لا ينجو منها إلا من أحياه الله بالعلم»**(٢).

---

(١) أورده الحكيم الترمذي في نوادر الأصول، في أن الموحِّد والصديق في الناس قليل، [٢/ ١٦٥]. ولفظه عنده: **«إن لله تعالى عباداً يضن بهم عن الأمراض والأسقام يحييهم في عافية ويميتهم في عافية ويُدخلهم الجنة في عافية»**.

(٢) هذا الحديث لم أجده بلفظه والذي ورد قوله ﷺ: **«ستكون فتن يصبح الرجل فيها مؤمناً ويمسي كافراً إلا مَن أحياه الله بالعلم»** رواه ابن ماجة في سننه، باب ما يكون من الفتن، حديث رقم (٣٣٨) [١/ ١٠٩] والدارمي في سننه، باب في فضل العلم والعالِم، حديث رقم (٣٣٨) [١/ ١٠٩] ورواه غيرهما.

قال الترمذي: يعني العلم بالله فيما نرى، وقال أيضاً: من ادعى الولاية فيقال له صف لنا منازل الأولياء فذكر مسائل معياراً على من ادعى الولاية.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي: للقطب خمسة عشر كرامة فمن ادعى هذه الرتبة فليختبر بها ثم عددها.

وقال الشيخ تاج الدين في لطائف المنن: اعلم أن رفع الهمة عن الخلق شأن أهل الطريق وصفة أهل التحقيق، ولقد سئل الجنيد أيزني العارف فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] ولعمري لو سئل أيطمع العارف في غير الله، قال: لا، وإنما مراد الحق سبحانه أن يفرده العباد في كل شيء حباً وثقة وتوكلاً وخوفاً ورجاء، وذلك الذي تستحقه فرديته ورفع الهمة إنما ينشأ عن صدق الثقة بالله على سبيل المعاينة، فيحبب لهم إيمانهم الاعتزاز بالله. قال الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] والنصر من عند الله. قال الله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] والنجاة من العوارض الصادّة عن الله تعالى. قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣] وشعار أهل الإرادة ودثارهم الاكتفاء بالله ورفع الهمة عما سوى الله، وصيانة ملابس الإيمان من أن تدنَّس بالميل إلى الأكوان والطمع في غير الملك الديّان، والذي يوجب لك رفع الهمة عما سوى الله علمك بأنه لم يخرجك إلى مملكته إلا وقد كفاك ومنحك وأعطاك فلم يبق لك حاجة عند غيره، وإذا كان قد اقتضى لهم الفهم عن الله أن يكتفوا بعلمه عن مسألته، فكيف لا يوجب لهم الفهم الاكتفاء بعلمه عن سؤال خليقته، ومن فاتحه الحق سبحانه بشيء مما فاتح به أحباءه فقد اقتضى منه رفع همته إليه كما اقتضاه من غيره وأولى، ألم تسمع قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٧، ٨٨] وكيف لا تكون منته فيك ومواهبه وفواتح عنايته وخصائص ولايته ناهية لك عن التعلق بغيره وإن كان ذا رتبة من المخلوقين فلا يرضى منك أن تنسب رتبة المنع والعطاء والولاية والعزل منها لغيره، فاحذر أن تكون من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦] وقبيح أن تكون في دار ضيافته وتوجه وجه طمعك لغيره، وتطلب ممن هو بعيد عنك، وتترك الطلب من مولى هو أقرب إليك من حبل الوريد، ألم تسمع إلى قوله: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقوله: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢] وقوله: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] كل ذلك لجمع هم عباده عليه وكي لا ترجع حوائجهم إلا إليه، انتهى.

وقال أيضاً: اعلم أن مبنى أمر الولي الاكتفاء بالله، والقناعة بعلمه والاغتناء بشهوده، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطّلاق: ٣] وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُمَر: ٣٦] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ۝﴾ [العَلق: ١٤] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فُصّلَت: ٥٣] فمبنى أمرهم في بداياتهم على الفرار من الخلق والانفراد بالملك الحق وإخفاء الأعمال وكتم الأحوال، تخفيفاً لعنائهم وتثبيتاً لزهدهم وعملاً على سلامة قلوبهم وحباً في إخلاص أعمالهم لسيدهم، حتى إذا تمكن اليقين وأيدوا بالرسوخ والتمكين وتحققوا بحقيقة الفناء وردوا إلى وجود البقاء، فهنالك إن شاء الحق أظهرهم هادين لعباده، وإن شاء سترهم فاقتطعهم عن كل شيء إليه، وظهور الولي ليس بإرادته لنفسه، ولكن بإرادة الله له، بل مطلبه إن كان له مطلب الخفاء لا الجلاء فلما لم يكن الظهور مطلبهم وأراد سبحانه إظهارهم فأظهرهم تولاهم في ذلك بتأييده وواردات مزيده لقوله ﷺ: **«يا عبد الرحمٰن بن سمرة لا تطلب الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها»**[1] ومن تحقق منهم بالعبودية لله لم يطلب ظهوراً ولا خفاءً بل إرادته وقف على اختيار سيده له.

قال: ومن أجل مواهب الله لأوليائه وجود العبارة، قال: وسمعت أبا العباس يقول: يكون الولي مشحوناً بالعلوم والمعارف، والحقائق لديه مشهودة، حتى إذا أعطي العبارة كان كالإذن من الله له في الكلام، قال: ومن أذن له في التعبير تهيأت في مسامع الخلق عبارته وجليت لديهم إشارته، قال: وسمعت شيخنا أبا العباس يقول: كلام المأذون له يخرج وعليه كسوة وطلاوة، وكلام الذي لم يؤذن له مكسوف الأنوار، حتى إن الرجلين ليتكلمان بالحقيقة الواحدة فيقبل من أحدهما ويرد على الآخر. قال:

واعلم أن من أراد الله به أن يكون داعياً إليه من أوليائه فلا بد من إظهاره إلى العباد إذ لا يكون الدعاء إلى الله إلا كذلك، ثم لا بد أن يكسوه الحق كسوتين

---

(١) ونصّه كما رواه البخاري في صحيحه: عن عبد الرحمٰن بن سمرة قال: قال لي النبي ﷺ: **«يا عبد الرحمٰن بن سمرة لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أوتيتها من غير مسألة أعِنتَ عليها، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيراً منها فكفِّر عن يمينك وائتِ الذي هو خير»** [كتاب الأيمان. . ، حديث رقم (٦٢٤٨) [٦/٢٤٤٣] والحديث رواه غير البخاري أيضاً.

الجلالة والبهاء، أما الجلالة فلتعظمه العباد فيقفوا على حدوده، ويضع له في قلوب العباد هيبة، وينصره بها ليكون إذا أمر ونهى مسموعاً أمره ونهيه، وجعل هذه الهيبة في قلوب العباد من تمكين الحق له، ليعينه على القيام له بالنصرة. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الحج: ٤١] وهي من إظهار إعزاز الحق لعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨] وهذه الهيبة التي جعلها الحق في قلوب العباد لأوليائه سرت إليهم لانبساط جاه المتبوع عليهم، ألم تسمع إلى قوله ﷺ: **«ونصرت بالرعب مسيرة شهر»**(١) ألبسهم الحق ملابس هيبته وأظهر عليهم إجلال عظمته، كلما نزلوا إلى العبودية رفعهم إلى سماء الخصوصية، فهم الملوك وإن لم تخفق عليهم البنود، والأعزاء وإن لم تسر أمامهم الجنود.

فصل في العقيدة التي أجمع عليها الصوفية: قال صاحب التَّعرف: أجمعت الصوفية على أن الله تعالى واحد أحد فرد صمد قديم عالم قادر حق سميع بصير باق عزيز عظيم جليل كبير جواد رؤوف متكبر جبار، أول، إله، سيد، مالك، رب، رحمٰن رحيم مريد حكيم متكلم خالق رازق، موصوف بكل ما وصف به نفسه، مسمى بكل ما سمى به نفسه، لم يزل قديماً بأسمائه وصفاته، غير مشبه بالخلق بوجه من الوجوه، لا تشبه ذاته الذوات ولا صفته الصفات ولا يجري عليه شيء من سمات المخلوقين، لم يزل سابقاً متقدماً المحدثات، موجوداً قبل كل شيء، لا قديم غيره، ليس بجسم ولا شبح ولا شخص ولا صورة ولا جوهر ولا عرض، لا اجتماع له ولا افتراق، ولا يتحرك ولا يسكن، ولا يزداد ولا ينقص، ليس بذي أبعاض، ولا أجزاء، ولا جوارح ولا أعضاء، ولا بذي جهات، لا تجري عليه الآفات، ولا تأخذه السنات، ولا تداوله الأوقات، ولا تعينه الإشارات، لا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان، لا تجوز عليه المماسة، ولا العزلة، ولا الحلول، لا تحيط به الأفكار، ولا تحجبه الأستار، ولا تدركه الأبصار، لم يسبقه قبل، ولم يقطعه بعد، ولا يغادره من، ولا يوافقه عن، ولا يلاصقه إلى، ولا يحله في، ولا يوافقه إذ، ولا تؤامره إن، ولا يظله فوق، ولا يقله تحت، ولا يقابله حد، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف، ولا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في أبواب عدة منها: باب إذا لم يجد ماءً ولا تراباً، حديث رقم (٣٢٨) [١/ ١٢٨] ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد...، حديث رقم (٥٢٣) [١/ ٣٧٢] ورواه غيرهما.

يحده أمام، ولا يظهره قبل، ولا يفنيه بعد، ولا يجمعه كل، ولا يوجده كان، ولا يفقده ليس، ولا يستره خفاء، تقدم الحدوثَ قدمُهُ، والقدمَ وجودُه، والغايةَ أزلُه، إن قلت متى فقد سبق الوقت كونه، وإن قلت قبل فالقبل بعده، وإن قلت هو فالهاء والواو خلقه، وإن قلت كيف لا يجتمع صفتان متضادتان لغيره امتناعاً بذلك أن يشبهوه، فعله من غير مباشرة، وتفهيمه من غير ملاقاة، وهدايته من غير إيماء، لا تنازعه الهمم، ولا تخالطه الأفكار، ليس لذاته تكييف، ولا لفعله تكليف، أجمعوا على أنه لا تدركه العيون، ولا تهجم عليه الظنون، لا تتغير صفاته، ولا تتبدل أسماؤه، لم يزل كذلك، ولا يزال، هو الأول والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيء عليم، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فصل: اختلف في صفات الأفعال، فالأشعرية على أنها حادثة، والحنفية على أنها قديمة، وإليه ذهب كثير من الصوفية فقالوا: لم يزل خالقاً، واحتجوا أنها لو كانت حادثة لكان ناقصاً في الأزل ثم كمل فيما لم يزل.

قال القونوي في شرح **التعرف**: يقال لهم: يلزمكم على هذا قدم الخلق لأن قولكم لم يزل خالقاً يوجب كون الخلق معه في القدم، قال: وهذه شبهة الفلاسفة في قدم العالم.

وقد حكي عن بعضهم أنه صعد المنبر وقال للحاضرين: ما تقولون في رجلين اعتقاد أحدهما أن الله لم يزل مالكاً للملك خالقاً رازقاً للرزق غنياً جواداً مفيضاً للخيرات له الخلق والأمر أزلاً وأبداً، والآخر يعتقد أن الله كان في الأزل وحده لم يكن معه شيء ولا كان له خلق ولا أمر حقيقة، ثم تجدد له ذلك أيهما أحق بالاتباع فبادر الناس إلى أن القائل الأول أحق بالتصديق والاتباع، وهذه دسيسة فلسفية فليتنبه لها ليحترز عنها، ويقال لهم: لا نقص مع تحقق القدرة الكاملة أزلاً وأبداً، وإنما اقتضت الحكمة الإلهية تأخر الخلق إلى إرادة الله تعلق القدرة الأزلية بإيجاده، وإذا استحال كون الحادث أزلياً لم يكن عدم تعلق القدرة بإيجاده أزلاً لنقص في القدرة بل لعدم قابلية المستحيل لتأثير القدرة فيه بالإيجاد. قال: والحاصل أن الأشاعرة قالوا: الخالق حقيقة هو الذي صدر منه الخلق فلو كان قديماً لزم قدم الخلق، نعم إن أريد بالخالق القادر على الخلق لم يكن في قدمه خلاف.

فصل في التعرف: وأجمعوا على أنه تعالى لا يرى في الدنيا بالأبصار ولا بالقلوب إلا من جهة الإيقان أي الإيقان بوجوده تعالى لأنه غاية الكرامة وأفضل

النعم، ولا يجوز ذلك إلا في أفضل مكان ولو أعطوا في الدنيا أفضل النعم لم يكن بين الدنيا الفانية والجنة الباقية فرق، ولما منع الله كليمه موسى عليه السلام ذلك في الدنيا كان من دونه أحرى.

قال: ولا نعلم أحداً من مشايخ هذه الطريق، ولم نرَ في كتبهم ولا في مصنفاتهم ولا في رسائلهم ولا في الحكايات الصحيحة عنهم، ولا سمعنا ممن أدركنا منهم، زعم أن الله يرى في الدنيا أو رآه أحد من الخلق إلا طائفة غلاة لم يعرفوا بأعيانهم، بل زعم بعض الناس أن قوماً من الصوفية ادعوها لأنفسهم، وقد أطبق المشايخ كلهم على تضليل من قال ذلك، وتكذيب من ادعاه، وصنفوا في ذلك كتباً، منهم: أبو سعيد الخراز، والجنيد في تكذيب من ادعاه وتضليله، وقالوا: من ادعى ذلك لم يعرف الله تعالى، وهذه كتبهم تشهد على ذلك.

زاد القونوي: وقد يكون الشيطان تراءى لمن ادعى ذلك ودعاه لنفسه وربطه في الضلال.

فصل: وقال في التعرف في نعوت الصوفية: ورأوا طلب العلم أفضل الأعمال وهو علم الوقت بما يجب عليهم ظاهراً وباطناً، وهم أشفق الناس على خلق الله من فصيح وأعجم، وأبذل الناس لما في أيديهم وأزهدهم فيما في أيدي الناس وأشدهم إعراضاً عن الدنيا، وأكثرهم طلباً للسنة والآثار، وأحرصهم على اتباعها.

قال القونوي: لأن الخير كله في اتباع الرسول ﷺ، قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] قال بعضهم: اعتبار الاتباع في المحبة مما يبطل قول من زعم من الزنادقة أن العبد قد ينتهي إلى مقام يستغنى فيه عن الوساطة بينه وبين الله، لأن أقصى مقامات العارفين المحبة وهي مشروطة بالاتباع، فما ظنك بغيرها، ثم قال: ومن كان منهم أصفى مراداً وأعلى مرتبة وأشرف مقاماً فإنه أشد اجتهاداً وأخلص عملاً وأكثر خوفاً، ويأخذون لأنفسهم بالأحوط والأوثق فيما اختلف فيه الفقهاء، وهم مع إجماع الفريقين فيما أمكن، ويرون اختلاف الفقهاء صواباً، ولا يعترض واحد منهم على الآخر، فكل مجتهد عندهم مصيب، وأجمعوا على إباحة المكاسب من الحرف والتجارات والحرث وغير ذلك على تيقظ وتثبيت وتحرز من الشبهات، وإنما تعمل للتعاون وحسم الأطماع ونية العود على الأغيار والعطف على الجار، وعندهم واجبة لمن له عيال، مباحه للمنفرد، واشتغاله بوظائف الحق أولى وأحق.

فصل: قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن: طريقة الشيخ أبي الحسن الشاذلي تنسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، والشيخ عبد السلام ينسب إلى الشيخ عبد الرحمٰن المدني، ثم واحد عن واحد إلى الحسن بن علي بن أبي طالب وهو أول الأقطاب، قال: وإنما يلزم تعيين المشايخ الذين يستند إليهم طريق الانتساب من كانت طريقه بلبس الخرقة فإنها رواية والرواية يتعين سندها وهذه هداية، وقد يجذب الله العبد إليه فلا يجعل عليه منّة لأستاذ، وقد يجمع شمله برسول الله ﷺ.

وذكر عن الشيخ عبد الرحيم القنائي أنه كان يقول أنا لا منّة لأحد علي إلا لرسول الله ﷺ وإذا أراد الله أن يتفضل على عبد فيكون أخذه عنه، وكفى بهذا منّة، ولقد قال لي الشيخ مكين الدين الأسمر: أنا ما رباني إلا رسول الله ﷺ ويغنيه عن الأستاذين حتى لا يكون له فيهم سلف فعل، ثم قال الشيخ تاج الدين: وسمعت الشيخ أبا العباس يقول: والله ما كان اثنان من أصحاب هذا العلم في زمن واحد قط إلا واحد عن واحد إلى الحسن، قال: وسئل الشيخ أبو العباس عن رجل كان كبير الشهرة ولا يحضر صلاة الجمعة، فتغير وقال: تذكرون بين يدي الأبدال والأولياء أهل البدع، انتهى.

فصل: فإن قلت كيف يكون الحَسَنُ أولَ الأقطاب وقبله أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، قلت: ظهر لي أن يقال: معناه أن الحسن أول من كانت له الخلافة الباطنة منفردة عن الظاهرة، فإن القطب هو خليفة النبي ﷺ ووارث الأمر من بعده، وكأن الحسن رضي الله عنه لما ترك الخلافة الظاهرة ابتغاء وجه الله وحقن دماء المسلمين عوّضه الله ما هو أجل منها وهو الخلافة الباطنة، ومن ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه، وأما الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم فكانت لهم الخلافتان الظاهرة والباطنة معاً ولم يجتمعا لأحد بعدهم إلا أن يكون عمر بن عبد العزيز.

فصل: قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: كان من مذهب الشيخ أبي العباس أنه لا يلزم أن يكون القطب شريفاً حسنياً بل قد يكون من غير هذا القبيل.

فصل: قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: الوارث للرجل هو الظاهر بعلمه وحاله وهو الذي تظهر طريق المورث على يديه، يفسر مجملها ويبسط مختصرها ،يرفع منارها ويبث أنوارها، يعرف الناس بما كان ذلك الرجل عليه من العلم بالله والمعرفة والتعوذ والاحتظاء من نوره، حتى إذا فرط الناس في محبته وتعظيمه في حياته، استدركوا ذلك بعد وفاته، لأن كل ما هو مقدور عليه مزهود فيه، وكل معجوز عنه متطلع إليه بالشغف.

قال الشيخ أبو العباس: يكون الرجل بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالاً حتى إذا مات قالوا: كان فلان وربما دخل في طريق الرجل بعد وفاته أكثر ممن دخل فيها في حياته.

فصل: إذا عرفت ما أوردناه من كلام الأئمة المتقدم ذكرهم علمت أن التصوف في نفسه علم شريف، وأن مداره على اتباع السنة وترك البدع والتبري من النفس وعوائدها وحظوظها وأغراضها ومراداتها واختياراتها والتسليم لله والرضى به وبقضائه وطلب محبته واحتقار ما سواه، كما قال الغزالي: التصوف تجريد القلب لله واحتقار ما سواه. وهذا هو المراد من قولهم الوصول إلى الله: كما قال ابن عباد في شرح الحكم: اعلم أن ما دامت لك همة وإرادة، فأنت بعد في الطريق لم تصل، فلو قد فنيت عنها لوصلت، وقال بعض المتقدمين: الاتصال أن لا يشهد غير خالقه فلا يصل بسره خاطر لغير صانعه، انتهى.

وعلمت أيضاً أنه قد كثر فيه الدخيل من قوم تشبّهوا بأهله وليسوا منهم، فأدخلوا فيه ما ليس منه، فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجميع، فوجه أهل العلم للتمييز بين الصنفين ليعلم أهل الحق من أهل الباطل، وقد تأملت الأمور التي أنكرها أئمة الشرع على الصوفية فلم أرَ صوفياً محققاً يقول بشيء منها، وإنما يقول بها أهل البدع والغلاة الذين ادعوا أنهم صوفية وليسوا منهم.

والراجع منها إلى أصل الدين أربعة: الأول وهو شرها الحلول والاتحاد، وهو كفر صريح وضلال مبين، ولم يقل به أحد من المعتبرين وحاشاهم من ذلك، بل ما زال المعتبرون من الصوفية ينبهون على تضليل من يقول به وتكفيره ويحذرون منه، منهم الغزالي في عدة مواضع من الأحياء.

قال في باب السماع: الحالة الرابعة سماع من جاوز الأحوال والمقامات فعزب عن فهمه ما سوى الله حتى عزب عن نفسه وأحوالها ومعاملاتها وكان كالمدهوش الغائص في عين الشهود الذي يضاهي حاله حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف حتى بهتن وسقط إحساسهن، وعن مثل هذه الحالة تعبر الصوفية بأنه فني عن نفسه فهو عن غيره أفنى، فكأنه فني عن كل شيء إلا عن الواحد المشهود، وفني أيضاً عن الشهود، فإن القلب إن التفت إلى الشهود وإلى نفسه بأنه مشاهد فقد غفل عن الشهود، والمستهتر بالمرئي لا التفات له في استغراقه إلى رؤيته وإلى عينه التي بها رؤيته ولا إلى قلبه الذي به لذته، فالسكران لا خبر له من سكره،

والمتلذذ لا خبر له من التذاذه، إنما خبره من الملتذ به فقط، ومثاله العلم بالشيء فإنه مغاير للعلم بالعلم بذلك الشيء، فالعالم بالشيء مهما ورد عليه العلم بالعلم بالشيء كان معرضاً عن الشيء، ومثل هذه الحالة قد تطرأ في حق المخلوقين، وتطرأ أيضاً في حق الخالق، ولكنها في الغالب تكون كالبرق الخاطف الذي لا يثبت ولا يدوم، فإن دام لم تطقه القوة البشرية، فربما يضطرب تحت أعبائه اضطراباً تهلك فيه نفسه، فهذه درجة الصديقين في الفهم والوجد، وهي أعلى الدرجات، لأن السماع على الأحوال نازل عن درجات الكمال، وهي ممتزجة بصفات البشرية وهو نوع قصور، وإنما الكمال أن يفنى بالكلية عن نفسه وأحواله، أعني أنه ينساها فلا يبقى له التفات إليها كما لم يكن للنسوة التفات إلى اليد والسكين، فيسمع لله وفي الله ومن الله وبالله، وهذه رتبة من خاض لجة الحقائق، وعبر ساحل الأحوال والأعمال، واتحد بصفاء التوحيد، وتحقق بمحض الإخلاص، فلم يبق فيه منه شيء أصلاً، بل خمدت بالكلية بشريته، وفني التفاته إلى صفات البشرية رأساً، ولست أعني بفنائه فناء جسده بل فناء قلبه، ولست أعني بالقلب اللحم والدم بل سر لطيف له بالقلب الظاهر نسبة خفية، إلى أن قال: ومن هنا نشأ خبال من ادعى الحلول والاتحاد، وقال: أنا الحق، وحوله يدندن كلام النصارى في دعوى اتحاد اللاهوت بالناسوت، أو تدرعها بها، أو حلولها فيها، على ما اختلفت فيه عباراتهم وهو غلط محض، هذا كله كلام الغزالي.

وقال أيضاً في باب المحبة: من قويت بصيرته ولم تضعف منته فإنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله، ولا يعرف غيره، ويعلم أنه ليس في الوجود إلا الله، وأفعاله أثر من آثار قدرته، فهي تابعة له فلا وجود لها في الحقيقة دونه، وإنما الوجود للواحد الحق الذي بيده وجود الأفعال كلها، ومن هذا حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل ويذهل عن الفعل من حيث أنه سماء وأرض وحيوان وشجر، بل ينظر فيه من حيث إنه صنع، فلا يكون نظره مجاوزاً إلى غيره، كمن نظر في شعر إنسان أو في خطه أو في تصنيفه ورأى فيه الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث إنه أثره لا من حيث إنه عفص وحبر وزاج مرقوم على بياض، فلا يكون نظره إلى غير المصنف، وكذا العالَم تصنيف الله تعالى، فمن نظر إليه أنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظراً إلا في الله ولا عارفاً إلا بالله ولا محباً إلا لله، وكان هو الموحد الحق الذي لا يرى إلا الله، بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه، بل من حيث إنه عبد الله، فهذا هو الذي يقال فيه: إنه فني في التوحيد، وإنه فني عن نفسه، وإليه الإشارة بقول من قال: كنا بنا ففنينا عنا فبقينا

بلا نحن، فهذه أمور معلومة عند ذوي البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام، أو باشتغالهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا يعنيهم.

ثم قال: وقد تحزّب الناس إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه إلى الظاهر، وإلى غالين مسرفين تجاوزوا إلى الاتحاد، وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم: أنا الحق، وضلّ النصارى في عيسى فقالوا: هو الإله، وقال آخرون: تدرع الناسوت باللاهوت، وقال آخرون: اتحد به، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتمثيل، واستحالة الاتحاد والحلول، واتضح لهم وجه الصواب فهم الأقلون، انتهى كلام الغزالي.

فانظر وفقني الله وإياك كيف بَيَّنَ أن الفناء عن ما سوى الله وشهود الحق أمر اعتباري معنوي لا حسي، وأن المراد به إسقاط الغير عن درجة الاعتبار، وأنه في حيز التلاشي والاحتقار، وأن المراد برؤية الله في كل شيء أنه يسبق إلى قلبه ذكر ربه عند رؤية كل شيء.

قال بعض العارفين: يسبق إلى قلبه ذكر ربه وانظر كيف صرح الغزالي في موضعين بتغليط من قال بالحلول والاتحاد وتضليله وتكفيره وإلحاقه بالنصارى، والغزالي أجل من اعتمد عليه في تحقيق هذا المقام، فإنه فقيه أصولي متكلم صوفي محقق.

وقال القطب القسطلاني في كتابه السابق ذكره: المحبة مبتدأ دخول أودية الفناء وأعلاها محبة خاصة الخاصة، وهي النظر إلى ما أهلهم له من حبه لهم وحبهم له بلا علة، فتولهوا وتاهوا في مهامه تلك الفكرة، وفاضت عليها مياه الأسرار الغيبية، حتى غسلت منهم دنس التعلق بالآثار الغيرية، فمحت منهم بقايا التطلعات النفسية، وحمت عنهم الالتفاتات إلى الجهات العلوية والسفلية، وهذه محبة الصديقين.

قال الجنيد: المحبة إفراط الميل بلا نيل، يعني: ميل القلب إلى الرب وإلى ما أمر به مما يدعو إلى القرب بلا أمل عطاء وجزاء ذلك.

وقال أبو يعقوب: لا تصح المحبة إلا بالخروج عن كل الاختيار مجرداً عن النظر إلى الأغيار، بعيداً عن القرب إلى الاعتراض على مجاري الأقدار، مشغولاً بالحق، لا يسع وقته إلى شيء غيره، ولا يندفع حاله إلى شيء من الفترة، ثم قال الجنيد: المشاهدة ثلاثة: مشاهدة من الرب، ومشاهدة الرب، ومشاهدة للرب. قال: فالمشاهدة على ثلاث طبقات: مشاهدة بالحق وهي: نظر الوجدان بوجوه

الاستدلالات على وحدانية الذات. ومشاهدة للحق وهي: نظر الحق في قيام المصنوعات وتمام المبدعات وصيانتها عن الآفات. ومشاهدة الحق وهي: نظر الحق قبل الأشياء ورؤيته سابقاً قبل الإنشاء، وهي رؤية خالية عارية عن الوصف عالية عن الكشف.

قال سهل بن عبد الله: المشاهدة إقامة الرؤية بأن العبودية مع فقدان الكل دونه، ثم قال: الفناء والبقاء صفتان معتورتان في نفس العبد، أحدهما تخلف الأخرى، وهما في لسان الإشارة فناء الوصف المذموم وبقاء الوصف المحمود، فإذا تم فناؤه عن الأخلاق والأحوال والأفعال ترقى منه إلى فنائه عن نفسه وعن الخلق باستيلاء شهوده، ففي هذه الحالة الخلق ونفسه موجودان، وإنما حصل له من الذهول ما غيبه عن الإحساس بوجودهما، والفناء استغراق في شهود مانع عن ملاحظة الحظوظ المتعلقة بموجود محدود، فيسقط عنه التمييز بنفي الأشكال اشتغالاً بما بقي به، ففني عن رؤية الأشباه والأمثال كما روي عن عامر بن عبد [قيس] أحد التابعين أنه قال: ما أبالي امرأة زانية وحائطاً، والمتولي له في حركاته وسكناته الحق سبحانه فيقوم بوظائفه ويحفظه في تصرفاته ويحميه عن مخالفاته، وذلك مستنبط من معنى قوله في الحديث: «كنت له سمعاً وبصراً».

وأما الذي يخلفه فهو الإقامة على ما لله عليه بعد الفناء عمّا له من الحظوظ، فتبقى الأشياء كلها عنده كشيء واحد فهو أبداً دائب في الموافقات دون المخالفات فالباقي بالحق عبارة عن عبد فني عن نفسه، فهو يعقل الأشياء لا لحظ يجلب منفعة أو يدفع مضرة بمعنى، أنه لا يقصد ذلك بمعنى أنه لا يجد حظاً بل إذا عمل قربة يقصد بعملها موافقة الأمر لا لذة نفسه في ذلك العمل ولا يطلب ثواباً عليه.

ثم قال: ولا يظن جاهل بعلوم هذه الطائفة أن معنى الفناء هو ترك التمييز بين حقائق الأشياء وأحكامها فتصير الموجودات كلها شيئاً واحداً وتبقى المخلوقات له موافقات فيبقى النهي عنده كالأمر لفنائه عن التمييز في الأحكام، فإن هذا مذهب معلول مدخول ذهب إليه من قصد تعطيل الشرائع وإبطال التكاليف وهو مذهب الإباحية، وإنما المعنى فيه ما قدمناه من أنه فني عن أوصافه وملاحظات أغراضه وبقي بأوصاف الحق، فإنه إنما يفعل الأشياء لغيره لا له لوجود استغنائه عن المنافع والمضار.

وقال إبراهيم بن شيبان: الفناء والبقاء يدور على خلاص الوحدانية وصحة العبودية، وما كان غير هذا فهو المغاليط والزندقة ونقل معناه عن أبي يعقوب النهرجوري.

وقال أبو سعيد الخراز: علامته ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله ثم يبدو له باد من حق الله فيريه ذهاب حظه من رؤية حظه أن يتلاشى عن نفسه وتبقى رؤية ما كان من الله لله، فذهاب الحظ من الدنيا ترك الأغراض، ومن الآخرة ترك طلب الأعواض، وذهاب حظه من رؤية حظه أن يتلاشى عن نفسه، فلا يرى لها في جانب عظمة الله قدراً لحقارتها، فيشتغل بالله عن رؤية ذلك، فيبقى ما كان لله بالله، ويفنى عما سوى الله، فيكون ما كان في علم الله قبل إيجاده.

ثم قال: التوحيد يقع في الذات والصفات والأفعال، ففي الذات نفي الصفات بالإجراء، وفي الصفات نفي التشبيه بالأسماء، وفي الأفعال نفي الشريك في شيء من الأشياء.

قال الجنيد: أشرف كلمة في التوحيد ما قاله أبو بكر الصديق رضي الله عنه: سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، ثم قال: الجمع أن لا تشهد إلا الحق وتفنى عما سواه، فتسلب الإرادات وتطرح كلفة التطلع إلى العادات، انتهى ما لخصناه من كلام القسطلاني.

فانظر كيف شرح هذه الألفاظ التي هي مظنة زلل الفهم شرحاً بيناً واضحاً جارياً على قوانين الشريعة، مداره على إفراد الأمر لله وحده وإسقاط ما سواه عن درجة الاعتبار ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وعلى ترك الإرادات والاختيارات وترك منازعة القدرة، وترك حظوظ النفس، والقيام بالأوامر والنواهي لله وحده، لا لجلب ثواب ولا لدفع عقاب، وهذا حال من عبد الله لله، خلاف من عبد الله للثواب وخوف العقاب، فإنما عبد لحظ نفسه وإن كان هو محبة أيضاً لكنه في درجة الأبرار وذاك درجة المقربين.

أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن موسى بن الصباح، قال: إذا كان يوم القيامة يؤتى بأهل ولاية الله فيقومون بين يديه ثلاثة أصناف:

فيؤتى برجل من الصنف الأول فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول: يا رب خلقت الجنة وأشجارها وثمارها وأنهارها وحورها ونعيمها وما أعددت لأهل طاعتك فيها فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقاً إليها؟ فيقول: إنما عملت للجنة فأدخلها ومن فضلي عليك أن أعتقك من النار فيدخلها هو ومن معه.

ثم يؤتى برجل من الصنف الثاني فيقول عبدي: لماذا عملت؟ فيقول: يا رب خلقت ناراً وخلقت أغلالها وسعيرها وسمومها ويحمومها، وما أعددت لأعدائك ولأهل معصيتك فيها فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري خوفاً منها. فيقول: عبدي، إنما عملت خوفاً من النار فإني قد أعتقتك من النار ومن فضلي عليك أدخلك جنتي فيدخل هو ومن معه الجنة.

ثم يؤتى برجل من الصنف الثالث فيقول: عبدي لماذا عملت؟ فيقول: ربي حباً لك وشوقاً إليك، وعزتك لقد أسهرت ليلي وأظمأت نهاري شوقاً إليك وحباً لك، فيقول الله: عبدي إنما عملت حباً لي وشوقاً إلي، فيتجلى له الرب فيقول: ها أنا أنظر إليّ. ثم يقول: من فضلي عليك أن أعتقتك من النار وأبحتك جنتي وأزيرك ملائكتي وأسلم عليك بنفسي فيدخل هو ومن معه الجنة.

وقال شارح منازل السائرين في بيان عجز العقول عن إدراك الذات المقدسة وترك الفكرة في ذلك: يعرف العبد أن عقله عاجز عن إدراك كل الموجودات من المخلوقات فضلاً عن خالقها، وقد عجزت العقول عن إدراك الخاصية التي يجذب بها المغناطيس الحديد والسقمونيا الأخلاط الصفراوية إلى غير ذلك مع القطع بوجودها، فإذا عرف العبد عجزه وآيس من الوقوف على غاية مطلبه، حمله ذلك على التمسك بحبل التعظيم والإجلال، وسلم بذلك من الوقوع في مسيء الاختلال.

وقال شارح منازل السائرين في شرح معرفة الخاصة: وإنما ترجحت هذه الدرجة من حيث ارتفاع هذه المصوفة لا بمعرفة الصفة، قوله: وهي تثبت بعلم الجمع، يريد المعارف وتعقلها بنفس الذات بذلك أن من تحقق عنده العلم بانفراد الحق سبحانه بالفعل والصفة والذات وقيام سائر الموجودات بما يخلقه لهم وفيهم من الصفات والحياة قاده ذلك إلى جمع الهمة عليه وعكوفها لديه وتصفو هذه المعرفة في ميدان الفناء عن ذكر غيره ورؤيته سواه، وإذا فني العبد عن غيره كملت معرفته ببقائه مع الحق وقلة غفلاته عنه، بل عدمها وهو علم البقاء، وإذا وصل من المعرفة إلى هذا الحد في التمكن شارف عين الجمع أي حقيقته وصار الجمع له حالاً، فعين الجمع بخلاف علم الجمع.

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في الحكم: كن بأوصاف ربوبيته متعلقاً وبأوصاف عبوديتك متحققاً، منعك أن تدعي ما ليس لك من المخلوقين أفيبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين.

وقال شارحه ابن عباد: التعلق بأوصاف الربوبية أن تشهد وجودك ولوازم وجودك، لا شيء من جميع ذلك لك ولا منك، وإنما هي عوار عندك فلا ترى وجودك إلا ببقائه، ولا عزتك إلا بعزته، ولا قدرتك إلا بقدرته، ولا غناك إلا بغناه، إلى غير ذلك من الأوصاف. ولا يتم لك ذلك إلى أن تتحقق بأوصاف عبوديتك من عدمك وفقرك وذُلّك وعجزك.

ثم أورد بعده كالدليل على ما ذكره من أنه لا حظ للعبد من صفات مولاه إلا التعلق بها فقط. وأنَّ ادعاءه شيئاً منها من كبائر معاصي القلب ومن مشاركة المربوب للرب ومن مقتضى الغيرة التي اتصف بها. ومن أفحش الفواحش عند العارفين وجود شيء من الشركة في قلب العبد بادعاء شيء من أوصاف الربوبية لنفسه عقداً أو قولاً، لأن ذلك منازعة له كما ورد «**الكبرياء إزاري والعظمة ردائي فمن نازعني واحداً منهما قصمته**»[1] ومعنى المنازعة الدعوى قولاً وعبارة والإضمار قصداً أو إشارة، ومعنى الغيرة في حقه تعالى أنه لا يرضى بمشاركة غيره فيما اختص به من صفات الربوبية وفيما هو حق له من الأعمال الدينية، وإذا كان الحق تعالى منعك وحرم عليك أن تدعي ما ليس لك مما أعطى المخلوقين من الأموال وسمى ذلك ظلماً وعدواناً فكيف يبيح لك أن تدعي وصفه وهو رب العالمين، لا شريك له في ذلك لا أنت ولا غيرك، فهو إذاً أعظم الظلم وأشد العدوان.

قال: وهذا المعنى الذي ضمنه المصنف هذه المسألة هو مرمى نظر الصوفية، وكل ما صنفوه أو دوّنوه وأمروا به ونهوا عنه من أقوال وأفعال وأحوال إنما هي وسائل إلى هذا المقصد الشريف والمقام المنيف. فشأنهم إنما هو العمل على موت نفوسهم وإسقاط حظوظها بالكلية، وليس ذلك هو المقصود لهم بالذات، وإنما غرضهم من ذلك ما يلزم عنه من انفراد الله تعالى بالوجود ولوازم الوجود انفراداً لا يشاركونه في شيء منه البتة، وهذا كيمياء السعادة الذي أعوز أكثر الناس ولم يحظوا منه إلا بالإفلاس، إذ بذلك يستحق المرء عبودية الله الذي لا مقام للعبد أشرف منه. ولهذا المعنى كانت عندهم حقائق خطرات الحظوظ وخفيات هواجس الهوى وكل ما يقتضي بقاء النفس وثبوتها من محبة المقامات وإيثار الألطاف والكرامات ذنوباً عظيمة

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ذكر الإخبار بأن من تقرب إلى الله قدر شبر أو ذراع...، حديث رقم (٣٢٨) [٢/ ٣٥] وأبو داود في سننه باب ما جاء في الكبر، حديث رقم (٤٠٩٠) [٤/ ٥٩] ورواه غيرهما.

وأخلاقاً لئيمة قادحة في صدق العبودية والإخلاص للربوبية، يتوبون من جميع ذلك إلى ربهم ويتعوذون به من شره.

وقال ابن عباد أيضاً في شرح قول الحكم: الكون كله ظلمة وإنما أناره ظهور الحق فيه، فمن رأى الكون ولم يشهده فيه أو معه أو قبله أو بعده، فقد أعوزه وجود الأنوار. وهذه الظروف المذكورة ليست بزمانية ولا مكانية، لأن الزمان والمكان من جملة الأكوان، قال: ومعرفة تفصيل هذا الظهور هو والتفرقة بين هذه الحقائق على ما هي عليه تعسر العبارة عنه وقد زلت فيه أقدام كثير من الناس وممن نصر على إكفار القائلين بالحلول والاتحاد من أهل التصوف الحافظ أبو نعيم الأصبهاني في أول الحلية كما تقدم، وكذلك القاضي ناصر الدين البيضاوي الإمام في التفسير والفقه والكلام والأصول والتصوف وانظر تفسيره المشهور تجده مشحوناً بالتصوف، وقد نصّ في سورة المائدة على كفر من قال بالحلول والاتحاد، وقال القاضي عياض في الشفاء ما معناه: أجمع المسلمون على كفر أصحاب الحلول، ومن ادعى حلول الباري سبحانه في واحد من الأشخاص، كقول بعض المتصوفة والباطنية والنصارى والقرامطة، وانظر كيف نقل ذلك عن بعض الصوفية، وهم الغلاة منهم لا كلهم، حاشاهم من ذلك، وكذلك لم ينقل أصحاب الكتب الكلامية ذلك إلا عن بعضهم.

قال الشيخ عز الدين بن جماعة في شرح الكوكب الوقاد: يجب أن ينزه الله تعالى عن الحلول خلافاً للنصارى وبعض الصوفية، جلّ الله وتعالى عن قولهم علواً كبيراً.

وقال القونوي في شرح التعرف في حديث «كنت سمعه» تأويل الحديث: أن الله تعالى يتولى من أحبه في جميع أحواله، كما يتولى الوالد والوالدة جميع أحوال الطفل، بحيث إنه لا يمشي إلا برجل أحدهما ولا يأكل إلا بيده، فكأنه فنيت صفاته وقامت صفات الوالدين مقامها لشدة اعتنائهما بحفظه وتسخير الله إياهما له، وكذلك ورد في الحديث «اللهم كلأة ككلأة الوليد»[1]. فمعنى «كنت سمعه» إلى آخره، أحاطت عنايتي ولطفي به بحيث يصير فعله وإدراكه كأنه فعلي وإدراكي.

قال: وأما ما يشير إليه أصحاب القول بالاتحاد من ادعائهم كون الحديث على ظاهره، وأن الحق سبحانه وتعالى ما زال سمعاً وبصراً ويداً للعبد حقيقة بدليل قوله:

---

(١) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

«كنت» وإنما ظهرت له حقيقة الحال حينئذ، فلا يخفى فساده لاستحالة كون القديم صفة للحادث، انتهى.

وقال الفاكهي وهو أحد أئمة المالكية وأحد المتصوفة وأحد أصحاب الشيخ أبي العباس المرسي في حديث «**كنت سمعه**» فهو فيما يظهر لي على حذف مضاف، والتقدير كنت حافظ سمعه الذي يسمع به، فلا يسمع إلا ما يحل سماعه، وحافظ بصره كذلك إلى آخره، قال: ويحتمل معنى آخر أدق من الذي قبله وهو أن يكون معنى سمعه مسموعه، لأن المصدر قد جاء بمعنى المفعول مثل فلان أملي بمعنى مأمولي؛ والمعنى: أنه لا يسمع إلا ذكري ولا يلتذ إلا بتلاوة كتابي ولا يأنس إلا بمناجاتي، ولا ينظر إلا في عجائب ملكوتي، فلا يمد يده إلا إلى ما فيه رضاي، ورجله كذلك. نقل هذين التأويلين عنه الحافظ ابن حجر في شرح البخاري، ثم قال: وأسند البيهقي في الزهد عن أبي عثمان الجيزي أحد أئمة الطريق قال ما معناه: أسرع إلى قضاء حوائجه من سمعه في الإسماع وعينه في النظر ويده في اللمس ورجله في المشي، وهذا تأويل حسن سائغ وهو لإمام صوفي، ثم قال الحافظ ابن حجر: وحمله بعض المتأخرين الصوفية على ما يذكرونه من مقام الفناء والمحو، وأنه الغاية التي لا شيء وراءها وهو أن يكون قائماً بإقامة الله له محباً بمحبته له، ناظراً بنظره له من غير أن يبقى معه بقية تناط باسم أو تقف على رسم أو تتعلق بأمر أو توصف بوصف، قال: ومعنى هذا الكلام أنه يشهد إقامة الحق له حتى قام، ومحبته له حتى أحبه، ونظره إلى عبده حتى أقبل ناظراً إليه بقلبه، انتهى. ولا إشكال في هذا المعنى أيضاً.

ثم قال الحافظ ابن حجر: وحمله بعض أهل الزيغ على ما يدعونه من أن العبد إذا لازم العبادة الظاهرة والباطنة حتى يصفى من الكدورات أنه يصير في معنى الحق. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأنه يفنى عن نفسه جملة حتى يشهد أن الله هو الذاكر لنفسه الموحد لنفسه الممجد لنفسه، وأن هذه الأسباب تصير عدماً صرفاً في شهوده وإن لم تعدم في الخارج.

ثم قال: ويرد على الاتحادية والقائلين بالوحدة المطلقة قوله في بقية الحديث: «**ولئن سألني ولئن استعاذني**» فإنه كالصريح في الرد عليهم، يعني حيث أثبت سائلاً ومسئولاً ومستعيذاً ومستعاذاً به.

وإلى هنا انتهى بنا القول في إبطال القول بالحلول والاتحاد، وتنزيه الصديقين عن القول وبراءتهم ومما يستدل به على براءتهم منه من حيث الجملة أن الأئمة أهل الفقه والكلام وأكابر أعلام الإسلام ما زالوا يصحبون أهل الطريق، ويحضرون مجالس وعظهم، ويبالغون في الثناء عليهم، وينقلون عباراتهم وإشاراتهم في دروسهم وتصانيفهم، فلو رأوا منهم ما يشعر بشيء من ذلك لكانوا أول النافرين وإلى الإنكار مبادرين.

كان إمام الشافعية أبو العباس ابن سريج ـ أحد كبار أصحاب الوجوه والفضل على جميع الأصحاب حتى قيل إنه أفضل من المزني، كذا ذكره الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في ترجمته ـ يحضر مجلس الجنيد ويسمع كلامه فيقول: أشهد أن لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل.

قال ابن السبكي في الطبقات: وعن ابن سريج أنه تكلم يوماً فأعجب به بعض الحاضرين فقال ابن سريج: هذا ببركة مجالستي لأبي القاسم القشيري صاحب الرسالة.

وحكى ابن السبكي في طبقاته عن ابن السمعاني أنه روي بسنده أن أبا القاسم القشيري حجّ سنة من السنين، وقد حجّ في تلك السنة أربعمائة نفس من قضاة المسلمين وأئمتهم من أقطار البلاد وأقاصي الأرض، فأرادوا أن يتكلم واحد منهم في حرم الله، فاتفق الكل على الأستاذ أبي القاسم، فتكلم هو باتفاق منهم، وكان ولده أبو النصر عبد الرحيم أيضاً يحضر عنده الأئمة.

قال ابن السبكي: لزم الأئمة مثل الإمام أبي إسحاق الشيرازي الذي هو فقيه العراق في وقته وعتبة منبره وأطبقوا على أنه لم ير مثله في تبحره، ثم قال ابن السبكي: وأعظم ما عظم به أبو نصر أن إمام الحرمين وهو عصريه نقل عنه في كتاب الوصية من النهاية وهذا فخار لا يعدله شيء.

قلت: ونقل عنه الرافعي والنووي في الروضة، وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي يحضر عنده الأئمة مثل سلطان العلماء الشيخ عز الدين بن عبد السلام والشيخ تقي الدين بن دقيق العيد، هذا مع ما صح عن ابن دقيق العيد من تشديد النكير على الاتحادية وتضليل عقولهم، فلو رأى في كلام الشاذلي ذرة من ذلك لكان أول مبادر إلى إنكارها.

قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله في لطائف المنن: سمعت الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد يقول: ما رأيت أعرف بالله من الشيخ أبي الحسن الشاذلي، قال: وأخبرني مكين الدين الأسمر قال: حضرت بالمنصورة في خيمة فيها الشيخ عز الدين ابن عبد السلام، والشيخ مجد الدين علي بن وهب القشيري، والشيخ محيي الدين الإخميمي، والشيخ أبو الحسن الشاذلي، ورسالة القشيري تقرأ عليهم وهم يتكلمون، والشيخ أبو الحسن صامت إلى أن فرغ كلامهم فقالوا: يا سيدي نريد أن نسمع كلامك، فقال: أنتم سادات الوقت وكبراؤه وقد تكلمتم فقالوا: لا بد أن نسمع منك، فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة والعلوم الجليلة، فقال الشيخ عز الدين وقد خرج من صدر الخيمة وفارق موضعه: اسمعوا هذا الكلام الغريب القريب العهد من الله.

وكان الشيخ أبو العباس المرسي تلميذ الشيخ أبي الحسن الشاذلي يحضر مجلسه الأئمة.

قال تلميذه الشيخ تاج الدين في لطائف المنن: كان علماء الزمن يسلمون له هذا الشأن حتى كان شيخنا العلامة شمس الدين الأيكي والأصفهاني يجلسان بين يديه جلوس المستفيد آخذين عنه ومتلقنين ما يبديه حتى سأله أحدهما عن بعض المشايخ الظاهرين في الوقت: يا سيدي أتعرفه؟ فقال: أعرفه هاهنا، وأشار إلى الأرض، ولا أعرفه هناك، وأشار إلى السماء.

قلت: فلو كان في طريقة المرسي وكلامه شيء من الاتحاد لم يقربه الأصفهاني الذي محله من علم الكلام والأصول بالمحل المعروف.

وكان الشيخ تاج الدين بن عطاء الله يحضر مجلس وعظه الأئمة مثل الشيخ تقي الدين السبكي إمام وقته تفسيراً وحديثاً وفقهاً وكلاماً وأصولاً ومنقولاً ومعقولاً، بل المجتهد الذي لم يأتِ بعده مثله ولا قبله من دهر طويل، وقد ذكر السبكي في بعض كتبه أخذه عن الشيخ تاج الدين وحضوره مجلسه، ونقل عنه بعض كلامه وقال: إنه متكلم الصوفية على طريق الشاذلية.

وفي المعجم المخرج للسبكي أنه قرأ عليه كتابه الحكم، وذكر فيه قطعة منه قرئت عنه واتصلت لنا بالسند إليه، ولو كان في طريق الشاذلية أدنى عوج لم يثن عليها السبكي ولا ولده ولا أئمة عصره ومن قاربهم، ولما كانت طرق التصوف دخل فيها الدخيل وكانت الطريقة القوية الخالية من البدع الجارية على قوانين الشريعة طريقة الجنيد وأتباعه.

قال ابن السبكي في جمع الجوامع: وإن طريق الشيخ الجنيد وصحبه طريق مقوم، وطريق الشاذلية في المتأخرين هي طريق الجنيد، فإنها ـ كما يعرف من تأمل كلام الشاذلي في التعاليق التي رويت عنه، وكلام الشيخ تاج الدين في كتبه ـ دائرة مع الكتاب والسنة واقفة مع الشرع زاجرة عن الخواطر التي لم توزن بميزان الشريعة كما سيأتي، نقل شيء من ذلك في الأمر الرابع.

قال سيدي علي بن وفا رحمه الله تعالى ونفعنا ببركاته والمسلمين:

تمسك بحب الشاذلية تلق ما ... تروم وحقق ذا الرجاء وحصل

ولا تعد عيناك عنهم فإنهم ... شموس هدى في أعين المتأمل

فإن قلت في كلام كثير ممن نسب إلى السداد والاستقامة ما يشعر بذلك كابن الفارض وابن العربي وسيدي محمد وفا وولده سيدي علي.

قلت: الجواب عن ذلك الاعتذار والتأويل، فإن حسن الظن بآحاد المسلمين واجب فضلاً عمن تواردت الألسنة بالشهادة له بالولاية، فإن ثناء الناس بذلك شاهد صدق كما نص عليه رسول الله ﷺ.

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظنن بكلمة خرجت من أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وقد كان ابن الفارض في زمن الشيخ زكي الدين عبد العظيم المنذري واجتمع به وسمع من شعره وذكره في معجمه ولم يصفه بسوء عقيدة، وقد أثنى عليه الشيخ عفيف الدين اليافعي أحد أئمة الشافعية وأحد الأولياء الكبار في كتابه كفاية المعتقد ونكاية المنتقد، وابن العربي أثنى عليه اليافعي في كتابه المذكور، والشيخ تاج الدين بن عطاء الله في كتابه لطائف المنن، وهما شاهدا عدل مقبولان في تزكية مثل هذا فهما فقيهان صوفيان.

قلت ذلك صوناً عن الوقيعة في أحد، وحفظاً للسان، لا رضى بالنظر في الكتب المنسوبة إليه، ولا إذناً في قراءتها لكل أحد، ومعاذ الله أن أذن لأحد في ذلك ثم لا آذن، وممن نقل كلام ابن العربي وابن الفارض في تأليفه الشيخ علاء الدين القونوي أحد أئمة الشافعية، وهو شارح الحاوي، فقيه أصولي صوفي متكلم علامة محقق، فهذا جواب إجمالي وتفصيله بأمور.

فأما الاعتذار فبأمرين أحدهما: جواز أن يكون ذلك صدر حال سكر وغيبة، وقد تقدم في كلام ابن السبكي الاعتذار بذلك، وأن الله رفع التكليف عمن غاب عقله

فلا يؤاخذ بذلك ولا تحل الوقيعة فيه بسبب ذلك، وإنما الإنكار على من يتلقى ذلك الكلام على ظاهره ويعتقده ويعتمده فهذا ينكر عليه أشد النكير، ولهذا قال ابن سريج لما استفتى عن الحلاج: هذا رجل خفي عني حاله فلا أقول فيه شيئاً. كأنه لم يثبت عنده أنه قال تلك الكلمة في حال صحو. **الثاني**: جواز أن يكون ذلك الكلام مفترى عليه ودس في كتابه أو ديوانه إما من عدو حاسد يريد شينه بذلك وتنقيصه كما وقع كثيراً للعلماء. وذكروا عن شرح التنبيه للجيلي أنه مشحون بغرائب لا تعرف في المذهب وأنها ليست منه، بل أدخلها فيه بعض الحسدة فأفسد بها الكتاب. وإما من زائغ ملحد أراد ترويج أمره ونصرة معتقده فدس هذا الكلام ليأخذه الناس بالقبول لإحسانهم الظن بهؤلاء الأخيار. وقد أخبرني بعض القضاة ممن أثق به أن الشيخ عبد الكريم الحضرمي أحد الأئمة السادة الكبار وقد اجتمعت أنا به بمكة الشريفة في مرض موته سئل عن بيت من كلام ابن الفارض وهو قوله:

وإذا سـألـتـك أن أراك حـقـيـقـة ... فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى

فقال: هذا ليس من كلامه فإن ابن الفارض عارف والعارف لا يقول مثل هذا.

وأما التأويل فبأمور: **أحدها**: أن العبارة عن المعاني المدركة بالوجدان على ما هي عليه تعسر جداً، ألا ترى أن الشخص لو أراد أن يصف لذة الجماع لمن لم يباشره بعبارة توصل ذلك إلى فهمه على حقيقته لم يستطع ذلك أبداً، ومن الأمور المقررة في العقول أن البديهيات والضروريات لا يمكن حدها. وقد قال الإمام فخر الدين: إن العلم لا يحد لأنه ضروري.

وقال إمام الحرمين: إنه نظري عسر الحد فيحصل للعارف منهم معنى قائماً بقلبه فيريد التعبير عنه فلا يمكنه عبارة تعطيه فيأتي بعبارة موهمة، كما قال الغزالي في الفناء: إن العلماء به قصرت عبارتهم عن إيضاحه وبيانه بعبارة مفهمة موصلة للغرض إلى الأفهام، وكما قال ابن عباد في مراتب الشهود: إن التفرقة بين حقائقها على ما هي عليه تعسر العبارة عنها، وأنه زلت بسبب ذلك أقدام كثير من الناس.

وقال صاحب التعرف: مشاهدات القلوب ومشاهدات الأسرار لا يمكن العبارة عنها على التحقيق، بل تعلم بالمنازلات والمواجيد، ولا يعرفها إلا من نازل تلك الأحوال.

زاد القونوي في شرحه: ونظير ذلك حال المسرور والمهموم ومن اتصف بالسرور والهموم، قال: وقد يجد الإنسان في نفسه أموراً يتحققها وتضيق عنها عبارته

ويقصر عن تعريفها إشارته. **الثاني**: أن يكون من استعمال اللفظ في معنى آخر غير المشهور على ألسنة العلماء تواضعاً منهم أو اصطلاحاً بينهم كلفظ الاتحاد فإنه يطلق على المعنى المرادف للحلول كما جمع بينهما الغزالي والبيضاوي وذلك كفر، ويطلق بمعنى التوحيد وإفراد الأمر كله لله، وقد نبّه على ذلك من أئمة التحقيق العلامة سعد الدين التفتازاني، ولهذا قال سيدي علي وفا في قصيدة:

يظنون بي حلولاً واتحاداً وقلبي من سوى التوحيد خالي

فتبرأ من الاتحاد بمعنى الحلول.

وقال في أبيات أخر:

وعلمك أن كل الأمر أمري هو المعنى المسمى باتحاد

فذكر أن المعنى الذي يريدونه بالاتحاد إذا أطلقوا هو تسليم الأمر لله وترك الإرادة معه والاختيار والجري على مواضع أقداره من غير الاعتراض وترك رؤية الخلق ونسبة العطاء والمنع مثلاً إليهم.

وقال أبو يعقوب: الخالص من الأعمال ما لم يعلم به ملك فيكتبه ولا عدو فيفسده ولا النفس فتعجب به.

قال صاحب التعرف: معناه انقطاع العبد إلى الله والرجوع إليه من فعله.

قال القونوي: أي إذا كمل انقطاع العبد إلى الله وفناؤه عن فعله، يصير فعله كلا فعل، فكأنه لم يفعل شيئاً، فلا الملك يكتبه ولا العدو يفسده ولا النفس تعجب به أي على سبيل التشبيه والتقدير إذ التقدير أعطى الموجود حكم المعدوم أو بالعكس، قال: وأكثر ما يقع في كلام هذه الطائفة من الإشارات محمول على هذا النوع من الاستعارات، ومن حملها على ظاهرها أشكلت عليه معانيها، فأساء الظن بهم، انتهى.

الثالث: أن يكون ما وقع في ألفاظهم مضافاً إلى أنفسهم، وهو مما لا يضاف إلا إلى الله تعالى، فإنهم يقصدون به حكايته عن الله، فإن الكلام ينقسم إلى ما يحكيه المتكلم عن نفسه، وإلى ما يحكيه عن غيره، وإن لم يصرح بالإضافة إليه، كحديث البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صَفِيَّهُ مِن أهل الدنيا ثم احتَسَبَهُ إلا الجنة**»[1] فهذا إنما قاله ﷺ حكاية

(١) رواه البخاري في صحيحه، باب العمل الذي يبتغي به وجه الله..، حديث رقم (٦٠٦٠) [٥/ ٢٣٦١] والإمام أحمد في المسند، عن أبي هريرة، حديث رقم (٩٣٨٢) [٢/ ٤١٧].

عن ربه وإن لم يصرح به، وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [الصافات: ١٦٤] فهذا على لسان الملائكة، وقال: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤] فهذا على لسان جبريل، وهذا نوع لطيف حررت الكلام فيه في الإتقان؛ ومثاله قول سيدي علي وفا رحمه الله تعالى والمسلمين:

كما لك طاعتي في كل حال ونقصك أن تعاند في مرادي

فإن هذا قاله على لسان الحقيقة، وكذا قول ابن الفارض:

وإن عبد النار المجوس وما انطفت كما جاء في الأخبار في ألف حجة
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم سواي إن لم يضمروا عقد نيتي

قاله أيضاً على لسان الحقيقة مشيراً به إلى أن عبادة الكفار وسجودهم للنار والصنم والوثن واقع في الحقيقة لله تعالى، لأن المذكورات أقل من أن تعبد ويسجد لها، فتقع السجدة لله على رغم أنف الساجد وهو كافر بنية السجود لغير الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]. أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره عن قتادة في الآية قال: المؤمن يسجد لله طائعاً، والكافر يسجد لله كارهاً. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم بسند صحيح عن ابن عباس في قوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣] الآية، قال: عبادتهم لي أجمعين طوعاً وكرهاً.

وأما حسن الظن وعدم الوقيعة فذاك هو الذي دلت عليه الآيات والأحاديث والآثار ونصوص العلماء، ولأن يخطىء الإنسان في عدم السب، خير من أن يخطىء في العقوبة، والمقصد الشرعي من التحذير حاصل بالتنفير من ذلك الكلام من غير وقيعة فيمن نسب إليه، وقد قال بعض الأئمة: لو عاش الإنسان عمره كله لم يلعن إبليس لم يسأل الله عن ذلك.

وقال السبكي في فتاويه: اعلم أنا نستصعب القول بالتكفير، لأنه محتاج إلى تحرير المعتقد وهو صعب من جهة الاطلاع على ما في القلب وتخليصه عما يشبهه، وتحريره، ويكاد الشخص يصعب عليه تحرير اعتقاد نفسه فضلاً عن غيره واعتراف الشخص به هيهات أن يحصل، وأما البينة في ذلك فصعب قبولها لأنها تحتاج إلى ما قدمنا.

وسئل الشيخ ولي الدين العراقي عن ابن العربي وابن الفارض فأجاب: ينبغي عندي أن لا يحكم على ابن العربي نفسه بشيء، فإني لست على يقين من صدور هذا

الكتاب عنه ولا استمراره عليه إلى وفاته، قال: وأما ابن الفارض فالاتحاد في شعره ظاهر لكن علماء عصره رووا عنه في معاجمهم ولم يترجموه بشيء من ذلك.

فقال الحافظ زكي الدين عبد العظيم المنذري في معجمه: عمر بن علي بن مرشد الشافعي الأديب سمع من القاسم بن أبي القاسم بن عساكر وحدث عنه، سمعت عنه شيئاً من شعره.

وقال الحافظ رشيد الدين العطار في معجمه: الشيخ الفاضل الأديب كان حسن النظم متوقد الخاطر وكان يسلك طريق التصوف وينتحل مذهب الشافعي وأقام بمكة مدة وصحب جماعة من المشايخ.

وقال الحافظ أبو بكر بن مسدي في معجمه: بارع في الأدب، وكان رقيق الطبع عذب النبع فصيح العبارة دقيق الإشارة سلس القياد نبيل الإصدار والإيراد متطرق متصوف كالروض الملفوف وتخلق بالزي وتزيا بالخلق وجمع من كرم النفس كل متفرق، انتهى.

وأما عدم الإذن في قراءة هذه الكتب فنقول: إما أن تكون لا تأويل لها صحيح فواضح أن قراءة مثل ذلك لا تجوز أو يكون لها تأويل صحيح ومخلص سائغ وحينئذ فهنا كلامان، أحدهما: القارىء، ونقول له ما مُرادك بقراءتك هذه الكتب؟ أمجرد فهم العلم؟ فهل أتقنت علوم الشريعة المهمة من الفقه الذي هو تكاليف محضة، والحديث الذي هو آداب سنية، والتفسير الذي هو معارف علية، والآلات التي بها يتوصل إلى فهم ذلك، كلا والله لا أتقنت ذلك ولا بعضه، ولا المقرىء أيضاً، فهذا خروج عن قانون الأدب والعقل حيث تترك الاشتغال بالعلم المهم إلى غير المهم، وإن كان مرادك أن تصير بقراءتها صوفياً محققاً، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة لو قرأت من هذه الكتب عدد رمل عالج في مدة عمر نوح لم تصر صوفياً حتى يلج الجمل في سم الخياط، إنما التصوف الدؤوب في الطاعات، وترك المخالفات، وفطم النفس عن المألوفات، وعدم التطلع إلى ما في أيدي الناس من الأموال المباحات فضلاً عن الشبهات وترك التوسل بالخلق والاعتماد على الله في كل الحالات وترك النظر إلى صحبة الملوك والأمراء فضلاً عمن سواهم من أهل الهيئات.

قال الجنيد: ما أخذنا التصوف من القال والقيل، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات.

وإذا كان أهل الطريق ذمُّوا من يشتغل بدقائق الفقه التي لا يحتاج إليها إلا نادراً كعويص مسائل الحيض والإجارة والمساقاة وغير ذلك، ورأوا العكوف على لزوم الطاعة وتطهير النفس أولى، فكيف يسمحون للسالك بقراءة هذه الكتب التي لا تدخل لها في السلوك ولا في تربية المريد ،وإنما هي إشارات محضة عن وجدانيات حصلت لهم عند انتهائهم، فرمزوا إليها، وليس للسالك حاجة بها ولا تعويل في سلوكه عليها.

وقد ذكر الغزالي في الإحياء سراً من الأسرار ثم قال: لعل القدر الذي ذكرناه كان الأولى تركه إذ سالك هذه الطريق لا يحتاج إلى أن يسمعه من غيره والذي لم يسلكه لم ينتفع بسماعه بل ربما يتضرر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث ما لا يفهم، انتهى.

ولم يعد لأحد من أئمة الطريق قديماً ولا حديثاً عقد حلقة لتدريس مثل هذه الكتب وتقريرها كما يقرر سائر العلوم، وإنما يأخذون المريد بالخلوة والانفراد وملازمة العبادات والذكر والأوراد ومجاهدة النفس ونحوها من وظائفهم المعروفة إلى أن يفتح الله عليه، وكان المتوجه منهم ممن أذن له يعقد مجلساً للوعظ يتكلم فيه على الناس بالمواعظ الحسنة والحكم المستحسنة، ويشير إلى ما في بواطنهم من الخبائث بما أطلعه الله عليه من الكشف، ويصدع بالحق بصدق وإخلاص، فيصلح الله بمواعظه خلقاً، ويشفي أدواء، وينور قلوباً، ويهدي بصائر من حيث لا يشعرون. هذا مصطلح القوم وبه كانوا يعملون ولمثل ذلك كان ابن سريج يحضر مجلس الجنيد، والشيخ أبو إسحاق الشيرازي يحضر مجلس أبي نصر القشيري في الكلام.

الثاني يتعلق بالمقرىء فنقول له: أيها الشيخ نفعنا الله وإياك، عليك أن تأخذ المريدين بالآداب التي قررها أهل الطريق، ولا تمكنهم من قراءة هذه الكتب التي هي مضلة الفهوم على تقدير أن يكون من المحققين العالمين بتأويله على أحسن المسالك، فإن اشتغالهم بهذه يشغلهم عما هم بصدده من السير، هذا على تقدير أن يكونوا مستعدين لفهمها، ذوي أذهان صحيحة لا يقبلون البدعة ولا تروج عليهم الشبهة، فكيف إذا كانوا على خلاف ذلك، ولو لم يكن إلا عدم معرفتهم بقواعد علم الكلام، وما يجوز على الله، وما يستحيل عليه من الصفات، وما يتعلق بالنبوات، وما يتعلق بحدوث العالم، وما يترتب على ذلك من الأمور المهلكات، عافانا الله من كل بلية وعصمنا من الزيغ إنه جواد كريم.

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾ [آل عِمرَان: ٨]، وأخرج حب الدنيا من قلوبنا فإنها رأس كل خطيئة، وانزع حب الرياسة من رؤوسنا، فإن النفس أمّارة بالسوء حباً للمراتب العلية، اللهم ارزقنا عصمة بك واستمساكاً بكتابك ووقوفاً تحت أقدام نبيك سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجلين، لا أريد بسنته بدلاً، ولا أبغي عنها حولاً، ولا أتزحزح عن آدابها السنية لا قولاً ولا فعلاً، في ليلي ونهاري، وعشيتي وإبكاري، ويقظتي ومنامي، ومحياي ومماتي، من ذا الذي يصل إلى مولاه من غير بابه، ومن ذا الذي يوثق بعراه سوى كريم أحبابه ﷺ، وعلى سادات السادات آله وأصحابه.

تذنيب: تقدم ذكر متخلق بالصفات، فربما ظنّ أن المتخلق اتصف بصفات الله حقيقة وهذا محال، إنما أخذ الاسم فقط لا المعنى الذي وصف به الباري، بل بمعنى حادث يليق بالعبد، كما تقدم تقريره في كلام القسطلاني، فالرحيم مثلاً تطلق على الله وعلى غيره، لكن معناه في حق العبد رقة القلب وهو محال على الله، فالرحمة في حقه سبحانه إرادة إيصال الخير أو فعله، على الخلاف في كونها صفة ذات أو صفة فعل.

قال الغزالي في الإحياء: الأسامي كلها إذا أطلقت على الله وعلى غير الله لم تطلق عليهما بمعنى واحد أصلاً، حتى أن اسم الموجود الذي هو أعظم الأسماء اشتراكاً لا يشمل الخالق والخلق بوجه واحد بل كل ما سوى الله فوجدوه تابع لوجوده، والوجود التابع، لا يكون مساوياً لوجود المتبوع، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم، نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجنس وليسا متشابهين في الجنسية، وهذا التباعد في سائر الأسامي أظهر كالعلم والإرادة والقدرة وغيرها، فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق الخلق، انتهى.

وها هنا انتهى الكلام في الأمر الأول وهو التنزيه عن الحلول والاتحاد وقد أطلنا فيه وحق لنا أن نطيل فإنه مزلة أقدام.

الأمر الثاني: القول بالإباحة وهذا أيضاً لم يقل به أحد من المعتبرين، وإنما قال به بعض الغلاة، زعموا أن الإنسان إذا وصل إلى حد الفناء سقط عنه التكليف، وأبيحت له المحرمات، وقد تقدم في كلام القسطلاني الإشارة إلى ذم ذلك وأنه زندقة، وكذا في كلام أبي نعيم. قال القاضي عياض ما معناه: الإجماع على تكفير من قال بتعطيل الأوامر والنواهي من المتصوفة وأصحاب الإباحة.

وقال القونوي في شرح التعرف: يحكى عن طائفة من أهل الزيغ والضلال أن العبد إذا وصل إلى الله سقط عنه التكاليف، وعللوا ذلك بأن المقصود من التكليف هو القرب والوصول إلى الله، فإذا حصل المقصود فلا حاجة إلى الوسيلة، وهذا محض الكفر والإلحاد في دين الله، فإن من المعلوم بالضرورة أن أقرب الناس إلى الله أنبياؤه ورسله ولم يرتفع عنهم التكليف إجماعاً فمن دونهم أولى.

قال: وذكر الغزالي أنه إن وقع في كلام أحد من المعتبرين ما يوهم ذلك فتأويله أنه يسقط عنه كلفة التكليف لا نفس التكليف، ومعنى ذلك أنه يتلذذ بالعبادات فلا يجد لها كلفة في الصلاة، وقوله ﷺ: **«أرحنا بها يا بلال»**[1] ونحو ذلك، انتهى.

والدليل على أن طريق الجنيد والشاذلي بريئة من ذلك ما ذكر في ترجمة الجنيد أنه حضر وقت موته وهو يصلي، فكان قاعداً يصلي ويثني رجليه كلما أراد أن يسجد، فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله فصلى وهي ممدودة فقيل له: لو اضطجعت؟ فقال: هذا وقت يؤخذ منه، ولم يزل ذلك حاله حتى مات.

وقال أبو عبد الرحمٰن السلمي: سمعت جدي يقول: دخل أبو العباس بن عطاء على الجنيد وهو في النزع، فسلّم عليه فلم يرد عليه، ثم ردّ عليه بعد ساعة فقال: اعذرني فإني كنت في وردي، ثم حوّل وجهه إلى القبلة وكبر ومات.

وقال أيضاً: سمعت عبد الواحد بن بكر قال: سمعت محمد بن عبد العزيز يقول: سئل الجنيد عمن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة، فقال: المكاتب عبد ما بقي عليه درهم، وقال الشيخ [أبو العباس المرسي] في دعائه لما قال: وأعطنا كذا وكذا والرزق الهني الذي لا حجاب به في الدنيا ولا عقاب عليه في الآخرة على بساط التوحيد والشرع.

قال الشيخ تاج الدين في التنوير: قوله: على بساط التوحيد والشرع، أي على أن أشهدك فيما رزقتني وأراك فيما أطعمتني، فلا أشهد ذلك من غيرك ولا أضيفه إلى أحد من خلقك، وكذا أهل الله لا يأكلون إلا على مائدة الله، أطعمهم من أطعمهم لعلمهم أن غير الله لا يملك معه شيئاً، فسقط بذلك شهود الخلق عن قلوبهم، فلم يصرفوا لغير الله حبهم، ولا وجهوا لمن سواه ودهم إذ رأوا أنه أطعمهم ومنحهم من فضله.

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، عن سلمان بن خالد الخزاعي، حديث رقم (٦٢١٥) [٦/ ٢٧٧].

وقوله: والشرع لأن من استرسل مع إطلاق التوحيد ورأى أن الملك لله تعالى وأن لا ملك لغيره معه ولم يتقيد بظواهر الشريعة فقد قذف في بحر الزندقة وعاد حاله بالوبال عليه، ولكن الشأن أن يكون بالحقيقة مؤيداً وبالشريعة مقيداً، فإن الانطلاق مع الحقيقة من غير تقييد بالشريعة تعطيل.

الأمر الثالث: القول بالوحدة المطلقة وقد بيّن القسطلاني فيما تقدم نقله عنه أن هذا القول قال به بعض المتصوفة الذين اشتغلوا بعلوم الأوائل وأدخلوها في فنهم، ومن مذهب الفلاسفة القول بقدم العالم وقدم الأرواح وإثبات الهيولى وكل ذلك تغير خارج عن ملة الإسلام نعوذ بالله منه، وعليه تتفرع الوحدة المطلقة.

وممن ركب له تصوفاً على مذهب الفلاسفة ابن سينا ذاك الأعمى القلب والبصيرة، فجزى الله أئمتنا خيراً الذين حَرَّموا الاشتغال بعلم المنطق والفلسفة حذراً من أن يجر إلى شيء من عقائدهم الفاسدة، كما قال ابن الصلاح في تعليل ذلك: مدخل الشر شر، والعجب ممن أراد الوصول إلى مرتبة الصالحين وترك سنة سيد الأنبياء والصالحين رسول الله ﷺ، وعمد إلى سنة قوم كفار ضلال، وبنى قواعده عليها ليصل، نعم وصل ولكن إلى شفا جرف هار.

وقد حدّثت عن العلامة الكريمي أنه حكى أن بعضهم رأى النبي ﷺ في النوم فسأله عن الغزالي والفخر الرازي وابن سينا فأثنى على الغزالي خيراً كثيراً، وقال في الفخر: إنه معاتب، وقال في ابن سينا: إنه أراد أن يصل إلى الله بغير واسطتي فانقطع، وإذا تأملت كتب المعتبرين، كرسالة القشيري وغيرها وكلام الشاذلي وكتب الشيخ تاج الدين، لم تجد فيها لفظة من ذلك، وإن وقع في كلامهم لفظ الوحدة، فمرادهم به التوحيد، وانفراد الله بالوجود ولوازم الوجود، لا ذلك الذي يريده أولئك.

الأمر الرابع: الاعتماد على كل خاطر سواء وافق الشرع أم خالفه، وربما كان صاحب هذا الخاطر ممن لم يتقدم له نظر في الشرعيات أصلاً لا أصولاً ولا فروعاً، وربما انضم إليه أنه لم تحصل له الرياضة التي يشرطها أهل القول بالإلهام، فلا حصل هذا ولا هذا، ثم أخذ يعتمد على جميع وساوسه وخواطره ويقررها ويدونها ويعمل عليها، ويدعي أنها التحقيق ويرد بها القواعد الشرعية والأحاديث النبوية، ويزعم أن الفقهاء بعيدون عن هذا الذوق، فليت شعري أجاءه من الله جبريل فأخبره أن خاطره معصوم، وأن الفقهاء كلهم حجبوا عن هذا الأمر وإدراك أنه حق، بل هذا خرق لإجماع كل طائفة حتى الصوفية، فإنهم نصُّوا على أن الخواطر غير معصومة، وأنها لا بد من عرضها على الكتاب والسنة، وأن لا بد من تقدم الاشتغال بهما.

قال أبو سليمان الداراني: ربما تقع في قلبي النكتة من نكت القوم أياماً، فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين من الكتاب والسنة.

وقال أبو حفص الحداد: من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعده في ديوان الرجال.

وقال الجنيد: الطريق مسدود على الخلق إلا على من اقتفى آثار رسول الله ﷺ وقال: من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وقال: مذهبنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ.

وقال الغزالي في الإحياء في باب العزلة: المحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه، عاص بالعزلة، وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم وراء الاشتغال بالعبادة فليعتزل، وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران، ولهذا قال النخعي وغيره: تفقه ثم اعتزل، ومن اعتزل قبل التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها، فلا ينفك عن أنواع من الغرور تخيب سعيه وتبطل عمله من حيث لا يدري ولا ينفك في اعتقاده في الله وصفاته عن أوهام يتوهمها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها، فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان، وهو يرى نفسه من العباد. فالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال.

وقال في باب الإلهام: زعم قوم من أهل التصوف أن الطريق في حصول الإلهامات أولاً قطع علائق الدنيا بالكلية فيفرغ قلبه عنها ويقطع الهمة عن الأهل والمال والولد والوطن وعن العلم والولاية والجاه، ويصير قلبه إلى حالة يستوي فيها وجود كل ذلك وعدمه، ثم يخلو بنفسه في زاوية مع الاقتصار على الفرائض والرواتب، ويجلس فارغ الهم مجموع القلب، ولا يفرق فكره لقراءة قرآن ولا يتأمل في تفسيره، ولا يكتب حديثاً ولا غيره، بل يجتهد أن لا يخطر بباله شيء غير ذكر الله تعالى، ويلزم في الخلوة قول الله الله على الدوام مع حضور القلب، إلى أن ينتهي إلى حالة يترك تحريك اللسان، ويرى كأن الكلمة جارية على اللسان، ثم يصير على ذلك إلى أن ينمحي أثرها عن اللسان فيصادف قلبه مواظباً على الذكر، ثم يواظب إلى أن ينمحي من القلب صورة اللفظ وحروفه وهيئة الكلمة ويبقى معنى الكلمة مجرداً في قلبه حاضراً فيه كأنه لازم له لا يفارقه وله اختيار في استدامته في هذه الحالة بدفع الوسواس، وليس له اختيار في استجلاب رحمة الله، بل هو بما قد

فعله قد تعرض لنفحات الرحمة، فلا يبقى إلا الانتظار لما يفتح الله من رحمته، فعند ذلك إذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته ولم تجاذبه شهواته ولم يشغله حديث النفس بعلائق الدنيا تلمع لوامع الحق في قلبه، ويكون في ابتدائه كالبرق الخاطف لا يثبت ثم يعود، وقد يتأخر، وإن عاد فقد يثبت، وقد يكون مختلفاً وإن ثبت فقد يطول ثباته وقد لا يطول، وقد يتظاهر أمثاله على التلاحق، وقد يقتصر على فن واحد، ومنازل أولياء الله فيه لا تحصى كما لا يحصى تفاوتهم، وقد رجع هذا الطريق إلى تطهير محض من جانبك، وتصفية وجلاء ثم استعداد أو انتظار فقط.

وأما النظار وذوو الاعتبار فلم ينكروا وجود هذا الطريق وإمكانه وإفضاءه إلى المقصود على الندور، ولكن استوعروه واستبطؤوا ثمرته، واستبعدوا اجتماع شروطه وقالوا: إن محو العلائق إلى ذلك كالمتعذر، فإن حصل في حالة فثباته أبعد منه إذا بدا وسواس وخاطر يشوش القلب.

قال رسول الله ﷺ: **«قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر إذا استجمعت غلياناً»**[1] وقال ﷺ: **«قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمٰن»**[2] وفي أثناء هذه المجاهدة قد يفسد المزاج ويختلط العقل ويمرض البدن، وإذا لم تتقدم رياضة النفس وتهذيبها بحقائق العلوم، نشبت بالقلب خيالات فاسدة، تطمئن النفس إليها مدة طويلة إلى أن تزول، والعمر ينقضي دون النجاح فيها، فكم من صوفي سلك هذه الطريق ثم بقي في حال واحد عشرين سنة، ولو كان هذا قد أتقن العلم من قبل لانفتح له وجه التباس ذلك الخيال في الحال، فالاشتغال بطريق التعلم أوثق وأقرب إلى الغرض، وقالوا: إن ذلك يضاهي ما لو ترك الإنسان تعلم الفقه، وزعم أن النبي ﷺ لم يتعلم ولكن صار فقيهاً بالوحي والإلهام عن تكرار وتعليق. وزعم أنه ربما انتهى بالرياضة إلى ذلك، ومن ظن ذلك ظلم نفسه، وضيّع عمره، بل هو كمن ترك طريق الكسب والحراثة رجاء العثور على كنز من الكنوز، فإن ذلك ممكن ولكن بعيد جداً. فكذلك هذا، وقالوا: لا بد أولاً من تحصيل ما حصله العلماء وفهم ما قالوه ثم لا بأس بعد

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٥٩٩) [٢٠/٢٥٣] والقضاعي في مسند الشهاب، حديث رقم (١٣٣١) [٢/٢٦٦] ورواه غيرهما، ونصه: **«لَقلب ابن آدم أسرع تقلُباً من القدر إذا استجمعت غلياً»**.

(٢) رواه مسلم في صحيحه بلفظ: **«إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمٰن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء»** ثم قال رسول الله ﷺ: **«اللهم مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك»** باب تصريف القلوب، حديث رقم (٢٦٥٤) [٤/٢٠٤٥] وروى الحديث غير مسلم.

ذلك بالانتظار لما لم ينكشف لسائر العلماء. فعساه ينكشف بالمجاهدة بعد ذلك، انتهى كلام الغزالي.

وقال القطب القسطلاني: في علوم هذه الطائفة مواجيد ترد عليهم من سوابق أعمال حصلت لديهم وأحوال ورثوها عن أعمال صححوها فلا يرث الأعمال إلا من صحح الأحوال، وأول ذلك علوم الشريعة المتعين عليها من علم الفقه وأصول الدين على طريق الكتاب والسنة والسلف الصالح دون التعمق في البحث عن دقيق الشبه وغوامضها، فإذا حصل من ذلك ما فيه كفاية، استعمل ما علم، وجد في الخدمة ما استطاع، فأول ما يلزمه البحث عن آفات النفس وعللها ومعرفة دخلها وخللها، وتهذيب أخلاقها، والتوسل إلى سد طرق أبواب فتنة الدنيا، ومكايد الشيطان، والاجتهاد والاحتراز منها، وهو جل علم الحكمة الذي قال الله تعالى فيه: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩] فإذا تمرنت النفس على هذه الحالات والوظائف ولانت أخلاقها وطباعها عن القسوة والفظاظة، وتطهر ظاهرها، وصفا باطنها، تمكن السالك حينئذ من مراقبة خواطره، وتصفية أسراره، وهو المعبر عنه بعلم المعرفة، ولسان العبارة يفصح عنه، ثم بعده علم الخواطر والمكاشفات والمشاهدات، وهو الموصوف بعلم الإشارة، وهذا العلم من خصائص الصوفية بعد مشاركتها في العلوم المشهورة المذكورة، وإنما قيل له علم الإشارة لأنه يقصر عنه لسان العبارة، لأنه علم ذوق ومنازلة ومواجيد متواصلة، ولا ينحصر ذلك في عبارة لقائل، وإنما يجري على اللسان ما هو نفع وتعليم لقائل فقد روي مرسلاً من حديث سعيد بن المسيب قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا أهل المعرفة فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله**»[1] وروي مسنداً من حديث عطاء عن أبي هريرة، وقال في موضع آخر: لا غنى بالمتوجه عن العلم، فإن لم يتسع وقته له سأل عن أمر دينه، ولا يستبد بما يخطر له في ذلك، فإنه يخرج به عن طريق الاستقامة، انتهى.

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: إذا كنت في درجة الخواص من القاصدين، وعرض لك في عزلتك الوسواس بما يشبه العلم من طريق الإلهام والكشف من حيث التوهم، فلا تقبل وارجع إلى الحق المقطوع من كتاب وسنة.

واعلم أن الذي عارضك لو كان حقاً في نفسه وأعرضت عنه إلى الحق بكتابه

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

وسنة رسوله لما كان عليك عتب في ذلك، لأنك تقول: إن الله قد ضمن لي العصمة في جانب الكتاب والسنة ولم يضمنها في جانب الكشف والإلهام والمشاهدة، فكيف لو قبلت ذلك من طريق الإلهام لم تقبله إلا بالعرض على الكتاب والسنة، فإذا لم تقبله إلا بهما فما بالك تأنس بالوساوس المتوهمة، فاحفظ هذا الباب حتى تكون على بصيرة من ربك، ويتلو الشاهد ذلك، والبينة لا خطأ معها ولا إشكال، والحمد لله، انتهى.

تذنيب: وقع من بعض من يشتغل بكتب التصوف أنه رأى في كلام بعضهم شيئاً توهم منه أنه يقول بإيمان فرعون، فأخذ بظاهره وجعل يقول: أكثر ما في القضية أنه حسن الظن برجل، فقلت له: تحسنه برجل شهد القرآن بكفره؟ فقال: في القرآن ما يدل على إيمانه، وهو قوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُ﴾ [يونس: ٩٠] الآية، قلت: هذه حكاية لفظية لا شهادة بإيمانه، والتلفظ بالإيمان في مثل هذه الحالة لا ينفع، قال تعالى: ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا﴾ [غافر: ٨٥] فقال: ليس في القرآن تصريح بأنه في النار، فقلت: قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦] فقال: ذكر آله ولم يذكره، فقلت: مع أن ما قاله جهل صرف، قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨] فقال: أوردهم ورجع عنهم، فقلت: الله أكبر هذه آفة من ترك ما يعنيه واشتغل بغيره، فلو نظر هؤلاء في تفسير الكتاب العزيز وأحاديث النبي ﷺ حتى أشرق في قلوبهم العلوم الشرعية والآداب السنية لعلموا كفر فرعون علماً يقينياً، يقضون بكفر من قال بإيمانه لتكذيبه النصوص الواردة في الكتاب والسنة، ولم يقصد صاحب هذه المقالة ما فهموه عنه، إنما ضرب قصة فرعون مثلاً للنفس، فإن فرعون لم يرجع عن غلوه واستكباره بشيء من الآيات والعظات، حتى أدركه الغرق، فاضطره إلى أن نطق بكلمة الإيمان، وأذعن للذل، فكذلك النفس إذا لم ترجع لشيء من المواعظ والزواجر، فعلاجها أن تغرق في بحر المجاهدة لتؤمن، والله الموفق.

وبهذا تعرف أنه لا حاجة لمن يأخذ في الشكوك إلى قراءة شيء من الكتب إنما ضرورته إلى تعلم السنة والفقه، ثم العمل بما علم ومجاهدة النفس وتهذيبها والله المستعان.

فصل: أنكر على بعض الصوفية أنه وقع منه أن درجة الولاية أفضل من درجة النبوة. وهذا القول كفر قطعاً، وهذا القول لم يقصد به ما يفهم من ظاهره بل هو مؤول بما سنذكره، ومع كونه مؤولاً فهو شاذ مردود لم يقل به إلا بعضهم وهو رد

عليه. وتأويله ما ذكره الشيخ علاء الدين القونوي في شرح التعرف: أن الولاية والنبوة بينهما عموم وخصوص مطلق، فكل نبي ولي ولا عكس، فلا ينفك النبي عن كونه ولياً أصلاً، كما أن بين النبوة والرسالة عموماً وخصوصاً مطلقاً، فلا ينفك الرسول عن كونه نبياً أصلاً.

قال صاحب هذه المقالة: إن النبي من حيث كونه ولياً أفضل منه من حيث كونه نبياً لأن الولاية وجهته إلى الحق والنبوة وجهته إلى الخلق، ولا يلزم من ذلك ما ظن من المحذور، لأنه إنما كان يلزم تفضيل الولي على النبي، لو وجد نبي غير ولي، وهذا لا يوجد كما تقدم، فالنبي فيه الولاية وزيادة النبوة فهو أجل مقاماً وأسنى قدراً، بل لا مناسبة بين مقامه ومقام غيره البتة، ونظير هذا ما قاله الشيخ عز الدين بن عبد السلام: مقام النبوة أفضل من مقام الرسالة. كما حكاه ابن جماعة في شرح جمع الجوامع عنه: نظراً إلى أن النبوة مقام العمل فهي متعلقة بالله تعالى. والرسالة مقام التبليغ فهي متعلقة بالخلق، ثم إنه لا يلزم من هذه المقالة تفضيل النبي على الرسول، لأنه لا يوجد رسول وهو غير نبي حتى يلزم ذلك، بل الرسول نبي وزيادة الرسالة فهو أفضل من النبي قطعاً لاجتماع المقامين فيه، فافهم.

وقد قال الشيخ أبو العباس المرسي في قول أبي يزيد البسطامي: خضت بحراً وقف الأنبياء بساحله، إنما يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء، ومراده أن الأنبياء خاضوا بحر التوحيد ووقفوا في الجانب الآخر على ساحل الغرق يدعون الخلق إلى الخوض، أي فلو كنت كاملاً لوقفت حيث وقفوا.

قال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله: وهذا الذي فسر به الشيخ كلام أبي يزيد هو اللائق بمقام أبي يزيد، فإن المشهور عنه التعظيم لمراسم الشريعة والقيام بكمال الأدب، حتى أنه حكي عنه أنه وصف له رجل بالولاية فأتى إلى زيارته فقعد في المسجد ينتظره، فخرج ذلك الرجل وتنخم في حائط المسجد فرجع أبو يزيد ولم يجتمع به، وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب الشريعة كيف يؤمن على أسرار الله؟

قال: وما جاء عن الأكابر أولى الاستقامة مع الله سبحانه من أقوال وأفعال يستنكر ظاهرها أولناها لهم لما علمنا من استقامتهم وحسن طريقتهم، وقد ورد: لا تظنن بكلمة برزت من مسلم سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً.

وقد قال الشيخ أبو العباس: جميع ما أخذ الأولياء مما أخذ الأنبياء كزق مليء عسلاً رشحت منه رشحات، فما في باطن الزق للأنبياء وتلك الرشحات للأولياء، وقال أيضاً: الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء والأولياء يطالعون مثالها لا هي، ولهذا قال حارثة لما سأله ﷺ عن حقيقة إيمانه: وكأني أنظر إلى أهل الجنة، ولم يقل: نظرت. وعبارة القونوي في هذه المسألة لا نعلم خلافاً بين المقرين بالنبوات في تفضيل الأنبياء، وما يعزى إلى بعضهم من تفضيل الولي فقد تأوله هو أو غيره بأن كل نبي ولي قطعاً. وهو من حيث إنه ولي أفضل منه من حيث إنه نبي، لأن ولايته وجهته إلى الحق ونبوته وجهته إلى الخلق، وفيه مع ذلك ما لا يخفى من الاستبشاع من جهة الإطلاق.

وقال صاحب التعرف: وأجمعوا على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل من البشر، وليس في البشر من يوازي الأنبياء في الفضل، لا صديق ولا ولي ولا غيره، وإن جلّ قدره وعظم خطره وعلت رتبته.

قال القونوي: قصده في هذا الكلام الرد على ما يروى عن طائفة من الضُلاَّل أن الولي أفضل من النبي، وهذا إلحاد وضلال عند أهل التحقيق، وكفر لا يعتقده إلا كل زنديق، ومن ادعاه حكم عليه بالتكفير والتضليل، قال: نعم وقع في كلام بعض المتأخرين أن الولاية أفضل من النبوة، وتأوله مَنْ يُحسن الظن فيه بأنه أراد أن للنبي فيه صفتان وذكر نحو ما تقدم.

فصل: ومما أنكر عليهم ذكرهم أنهم يرون النبي ﷺ يقظة، وهذا لا إنكار فيه، وممن نص على إمكانه ووقوعه من أئمة الشرع الغزالي واليافعي، وفي كلام القرطبي إشارة إليه.

وذكر الشيخ أبو الحسن الشاذلي أنه رأى النبي ﷺ يقظة وحمله السلام إلى الشيخ عز الدين بن عبد السلام، وبلغه ذلك ولم ينكره هو ولا أحد من علماء عصره، وقد ألفت في المسألة تأليفاً فأغنى عن بسط الكلام فيها هنا، نعم يتحرز في ذلك من أهل الدعاوى الكاذبة بالاختبار والامتحان، وقد ادعى شخص مرة ذلك، فاجتمع به بعض أهل الفطنة واختبره، فوجد أمارات البطلان لائحة عليه وظلمة الكذب ظاهرة على وجهه، ثم رأى رجل يوثق به النبي ﷺ فقال له: هذا لفلان وذكره مبطل فليحذر، ثم أخمد الله أمره كعادة المبطلين.

فصل: ومما أنكر عليهم قديماً أمر **الخضر واجتماعهم به وحياته**، وممن أنكر ذلك ابن الجوزي، وقال: إنه لو كان حياً لاجتمع بالنبي ﷺ ولو اجتمع به لورد، وقد رد الناس على من أنكر ذلك.

قال ابن الصلاح: الخضر حي عند جماهير العلماء والصالحين وإنما شذّ بإنكاره بعض المحدثين.

وقال النووي في شرح مسلم جمهور العلماء أنه حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة، انتهى.

وألّف غير واحد كتباً في ذلك آخرهم شيخ الإسلام ابن حجر، وقد ورد في عدة أحاديث اجتماعه بالنبي ﷺ، وعندي أنها وإن كانت ضعيفة فكثرة الطرق والأخبار تقويها وتعزيته للصحابة عند موت النبي ﷺ وقول علي: هذا الخضر، وسكوت الصحابة على ذلك يكاد يكون إجماعاً، وقصة اجتماعه بعمر بن عبد العزيز إسنادها صحيح، والأخبار في شأنه كثيرة وقد سقتها في كتاب حلية الأولياء وفي التفسير المأثور.

فصل: وأنكر عليهم بعض العلماء **ذكر الأبدال والنجباء والأوتاد والأقطاب** قائلاً: إنه لا أصل لذلك في الحديث وليس كما زعمه فقد وردت الأحاديث والآثار بذلك، وقد جمعتها في مؤلف فأغنى عن ذكرها هنا.

فصل: قال القونوي: قد يقع في كلام بعض العارفين ما يوهم الجبر من نفيهم الاختيار والغفلة عن أنفسهم ومرادهم عدم الملاحظة لذلك لاستغراقهم في النظر إلى ما منه تعالى لا إلى ما منهم.

فصل: ومما أنكر عليهم **قولهم في الروح**. فاعلم أن في ذلك ثلاث فرق: فالأولى وهي الفرقة المرتضاة الوقوف عن الخوض فيها تأدباً مع الله، وهذه طريقة الجنيد.

قال الجنيد: الروح شيء استأثر الله بعلمه، ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، ولا يجوز العبارة عنه بأكثر من موجود لقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥].

وقال السهروردي بعد ذكره أن الناس تكلموا في الروح وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي ﷺ، وذكر ما قاله الجنيد، ثم قال: ويجوز أن يكون كلامهم في ذلك بمتابعة التأويل لكلام الله حيث حرم تفسيره وجوّز تأويله، والتأويل

ذكر المحتمل من غير القطع بذلك، وهؤلاء هم الفرقة الثانية، وقد أطبقوا على القول بأنها حادثة، وشذت فرقة ثالثة غلاة فذهبت إلى القول بقدمها، وهذه نزغة فلسفية نعوذ بالله منها، وحسن بعضهم العبارة فقال: الروح موجود عظيم لا يوصف بأنه محدث ولا قديم، وزعم أن الأرواح الجزئية أشعة ورقائق من ذلك الروح الأعظم وهذا أيضاً فاسد.

قال القونوي: وأكثر ما وقع ذلك في عبارة المتأخرين، والحق أن القديم هو الله تعالى وصفاته وكل ما سواه من الأرواح والأجسام حادث، انتهى.

قلت: أتقنْ هذا الفصلَ وأحكِمْهُ جيداً واعتقد حدوثَ الروح وكرره في ذهنك، حتى يختلط بلحمك ودمك، وإياك أن تغتر وتقبل قول من حَرَّف، فإن أكثر ما وقع الزلل للمتأخرين وغيرهم من هنا، والله الموفق.

فصل: وأما السماع فإن كان بغير آلة فمذهبنا أنه ليس بحرام، فلا إنكار فيه، وقد كان يحضره الأئمة من كل مذهب في كل عصر.

روى الحافظ محمد بن طاهر المقدسي بسنده عن مصعب بن الزبير قال: حضرت مجلس مالك بن أنس فسأله أبو مصعب عن السماع فقال مالك: أهل العلم ببلدنا لا ينكرون ذلك، ولا يقعدون عنه، ولا ينكره إلا غبي جاهل أو ناسك عراقي غليظ الطبع.

وروى أيضاً بسنده عن صالح بن أحمد بن حنبل أنه كان يحب السماع، وأنه أحضر رجلاً يغنيه فسمعه أبوه.

وقال ابن طاهر أيضاً: أخبرنا أبو محمد التميمي قال: سألت الشريف أبا علي محمد بن أحمد بن أبي موسى الهاشمي عن السماع فقال: ما أدري ما أقول فيه إلا أني حضرت في دار شيخنا أبي الحسن عبد العزيز بن الحارث التميمي شيخ الحنابلة سنة سبعين وثلاثمائة في دعوة عملها لأصحابه، حضرها أبو بكر الأبهري شيخ المالكيين، وأبو القاسم الداري شيخ الشافعيين، وأبو الحسن طاهر بن الحسين شيخ أصحاب الحديث، وأبو الحسين بن سمعون شيخ الوعاظ والزهاد، وأبو عبد الله بن مجاهد شيخ المتكلمين، وصاحبه أبو بكر الباقلاني، حتى قال بعض الحاضرين: لو سقط سقف عليهم لم يبقَ في العراق من يفتي في حادثة بِسُنَّة، وكان رجل حاضر يقرأ بصوت حسن فقالوا له: قل شيئاً، فقال وهم يسمعون:

خطت أناملها في بطن قرطاس رسالة بعبير لا بأنفاس

ابرز فديتك قف لي غير محتشم ... فإن حبك لي قد شاع في الناس
فكان قولي لمن أدى رسالتها ... قفي لأمشي على العينين لا الرأس

قال ابن طاهر: وآخر من كان يبيح استماعه من الأئمة المقتدى بهم الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وكان في ورعه وزهده وتقشفه بالمحل الذي لا يخفى، انتهى.

وقال البيهقي في شعب الإيمان: قرأت على أبي عبد الرحمٰن محمد بن الحسين السلمي قال: سألت الإمام أبا سهل محمد بن سليمان عن السماع فقال: يستحب ذلك لأهل الحقائق، ويباح ذلك لأهل الورع، ويكره ذلك للفساق ومن يسمعه تطرباً.

وقال القونوي في شرح التعرف: قد حضره من المتأخرين الشيخ عز الدين بن عبد السلام، والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، وغيرهما من العلماء الأعلام أئمة الإسلام.

وذكر الأسنوي في الطبقات أن الشيخ تاج الدين بن الفركاح كان يحب السماع ويحضره، وممن استحسنه أيضاً القطب القسطلاني، وذكر الماوردي في الحاوي: أن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب كان يستكثر من سماع الغناء، ويشتري الجواري لذلك.

إذا تقرر ذلك فهاهنا أمور لا بد منها:

الأول: أنه لا يلزم مما ذكرناه أن ذلك حال كمال فقد قال الجنيد: إذا رأيت المريد يطلب السماع فاعلم أنَّ فيه بقية من البطالة، وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه ليس من طريقه السماع.

الثاني: قال القونوي: محل ما ذكرناه من الترخص في أمر السماع ما لم يستكثر منه، فأما من اتخذه ديدنه وهجيراه، وقصر عليه أكثر أوقاته فمذموم، نص عليه الغزالي، وذلك لأنه إنما فسح فيه لترويح القلب، وربما يصير المباح عبادة محضة بالنية إذا نوى استجمام النفس، كما قال أبو الدرداء رضي الله عنه: إني لأستجم نفسي بشيء من الباطل ليكون ذلك عوناً على الحق.

قال صاحب العوارف: ولموضع الترويح كرهت الصلاة في أوقات لتستريح عمال الله وترتفق النفوس ببعض مآربها من ترك العمل.

وفي كلام سهل بن عبد الله الصادق يكون جهله مزيداً لعمله، وباطله مزيداً لحقه، ودنياه مزيداً لآخرته، ولهذا المعنى حبب لرسول الله ﷺ النساء ليكون حظ نفسه الشريفة الموهوب لها حقوقها لموضع طهارتها.

الثالث: قال صاحب العوارف: قد كثرت الفتنة في السماع وزالت العصمة فيه، وتصدى للحرص عليه أقوام، قلّت أعمالهم وفسدت أحوالهم وأكثروا الاجتماع للسماع، فصار السماع معلولاً تركن إليه النفوس طلباً للشهوات واستحلاء لمواطن اللهو والفضلات، وينقطع بذلك على المريد طلب المزيد، ويكون طريقه به تضييع الأوقات وقلة الحظ من العبادات، فلا يخفى أن هذا الاجتماع مردود عند أهل الصدق، ولا سيما إن انضم إلى ذلك المراءاة والتودد إلى بعض الحاضرين، وغير ذلك من الأمور التي لا يعتمدها من المتصوفة إلا من ليس له من التصوف إلا مجرد زي وصورة بأن يكون القوال أمرد تنجذب النفوس إليه، أو يكون للنساء إشراف على الجمع، وتتراسل البواطن المملوءة من الهوى، فيكون ذلك عين الفسق المجمع على تحريمه، وأهل المعاصي أحسن حالاً ممن هذا حالهم، لأنهم يرون فسقهم، وهذا لا يراه ويراه عبادة لمن لا يعلم ذلك.

الرابع: قال صاحب العوارف: كان يقال: لا يصلح السماع إلا لعارف مكين ولا يصلح لمريد مبتدي.

وقال القونوي: لقد كرهه المشايخ للمريدين في مبادىء إرادتهم قبل أن تتمرن نفوسهم بصدق المجاهدات.

قال بعضهم: لا يصلح السماع إلا لمن كانت له نفس ميتة وقلب حي، فنفسه ذبحت بسيوف المجاهدة، وقلبه حيي بنور الموافقة والمشاهدة.

الخامس: قال صاحب العوارف: كانوا لا يسمعون إلا من أهل مع أهل فلما فقدوا الإخوان تركوه.

وقيل: إن الجنيد ترك السماع فقيل له: لِمَ لا تسمع؟ قال: مع مَن؟ قيل له: أنت تسمع لنفسك، قال: ممن.

السادس: قال أبو نصر السراج في كتاب اللمع في التصوف: لا يصلح السماع للمريد حتى يعرف أسماء الله وصفاته ليضيف إلى الله ما هو أولى به، ولا يكون قلبه ملوثاً بحب الدنيا وحب المحمدة والثناء، ولا يكون في قلبه طمع للمخلوقين، ويكون مراعياً لقلبه حافظاً لحدوده متعاهداً لوقته.

السابع: قال صاحب العوارف: إن أنصف المنصف وتفكر في اجتماع أهل الزمان وقعود المغني بدفه، والمشبب بشبابته، وتصور في نفسه هل وقع مثل هذه الجلسة والهيئة بحضرة رسول الله ﷺ، وهل استحضروا قوّالاً وقعدوا مجتمعين

لسماعه، فلا شك أنه ينكر ذلك من حال رسول الله ﷺ وأصحابه، ولو كان ذلك فضيلة تطلب ما أهملوها.

قال: فمن يشير بأنه فضيلة تطلب ويجتمع لها لم يحظ بذوق معرفة رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين ويستروح إلى استحسان بعض المتأخرين ذلك.

قال: وكثيراً ما يغلط الناس في هذا كلما احتج عليهم بالسلف الماضين احتجوا بالمتأخرين وكان السلف أقرب إلى عهد رسول الله ﷺ وهديهم أقرب إلى هدي رسول الله ﷺ، انتهى.

وقد وقفت على فصل في أحكام السماع للشيخ عز الدين بن عبد السلام قال فيه ما نصه: السماع يختلف باختلاف السامعين والمسموع منهم، وهم أقسام:

أحدها: العارفون بالله ويختلف سماعهم باختلاف أحوالهم، فمن غلب عليه الخوف أثر فيه السماع عند ذكر المخوفات، وظهرت آثاره عليه من الحزن والبكاء وتغير اللون.

والخوف على أقسام أحدها: خوف العقاب، **والثاني**: خوف فوات الثواب، **والثالث**: خوف فوات الحظ من الأنس والقرب بالملك الوهّاب، وهذا من أفضل الخائفين وأفضل السامعين، فمثل هذا لا يتصنع في السماع ولا يصدر عنه إلا ما غلب عليه من آثار الخوف، لأن الخوف وازع عن التصنع والرياء، وهذا إذا سمع القرآن كان تأثيره فيه أشد من النشيد والغناء.

الثاني: من غلب عليه الرجاء فهذا يؤثر فيه السماع عند ذكر المطمعات والمرجيات، فإن كان رجاؤه الأنس والقرب كان سماعه أفضل سماع الراجين وإن كان رجاؤه للثواب كان في الرتبة الثانية، وتأثير السماع في الأول أشد من تأثيره في الثاني.

الثالث: من غلب عليه الحب وهو قسمان: **أحدهما**: من أحب الله لإنعامه عليه وإحسانه إليه، فهذا يؤثر فيه سماع الإنعام والإفضال والإحسان والإكرام. **الثاني**: من غلب عليه حب الله لشرف ذاته وكمال صفاته فهذا يؤثر فيه ذكر شرف الذات وكمال الصفات، ويشتد تأثيره عند ذكر الإقصاء والإبعاد وهو أفضل من الذي قبله لأن سببه أفضل الأسباب.

الرابع: من غلب عليه التعظيم والإجلال، فهذا أفضل من الأقسام الثلاثة، إذ لا حظ في سماعه لنفسه، فإن النفس تتضاءل وتتصاغر للتعظيم والإجلال، فلا حظ

لنفسه في هذا السماع، بخلاف من تقدم ذكره في الأقسام، فإنهم واقفون مع ربهم من وجه، ومع أنفسهم من وجه أو وجوه، وشتان بين ما هو خالص لله وبين ما شاركته فيه النفوس، فإن المحب يلتذ بجمال محبوبه وهو حظ نفسه، والهائب ليس كذلك.

وتختلف أحوال هؤلاء بالمسموع منه، فالسماع من الأولياء أكثر تأثيراً من السماع من الجهلة الأغبياء، والسماع من الأنبياء أشد تأثيراً من السماع من الأولياء، والسماع من رب الأرض والسماء أشد تأثيراً من السماع من الأنبياء، لأن كلام الرب أشد تأثيراً في الهائب من كلام غيره، كما أن كلام المحبوب أشد تأثيراً في المحب من كلام غيره، ولهذا لم يشتغل الأنبياء والصديقون وأصحابهم بسماع الملاهي والغناء، واقتصروا على سماع كلام ربهم لشدة تأثيره في أحوالهم، ولقد غلط كثير من الناس في سماع النشيد والغناء من جهة أن أصوات الملاهي وطيب النشيد وطيب الغناء فيها حظ للنفوس، فإذا سمع أحدهم شيئاً مما حرك حاله التذت نفسه بأصوات الملاهي ونغمات الغناء، وذكره النشيد بما يقضيه حاله من الحب والخوف والرجاء، فتثور فيه تلك الأحوال فتلتذ النفس من وجه مؤثره، ويؤثر السماع ما يشتمل عليه الغناء من الحب والخوف فيحصل له الأمران لذة نفسه والتعلق بأوصاف ربه فيظن أن الكل متعلق بالله وهو غالط.

القسم الخامس: من يغلب عليه هوى مباح كمن يعشق زوجته أو سريته فهذا يهيجه السماع ويؤثر فيه الشوق وخوف الفراق ورجاء التلاق فيطرب لذلك، فسماع مثل هذا لا بأس به.

السادس: من يغلب عليه هوى محرم كهوى المرد ومن لا يحل له من النساء، فهذا يهيجه السماع إلى السعي في الحرام وما أدى إلى الحرام حرام.

القسم السابع: من قال لا أجد في نفسي شيئاً مما ذكرتموه في الأقسام الستة فما حكم السماع في حقي؟ قلنا: هو مكروه من جهة أن الغالب على العامة إنما هي الأهواء الفاسدة فربما هاجه السماع على صورة محرمة فيتعلق بها ويميل إليها ولا يحرم عليه ذلك لأنا لا نتحقق السبب المحرم، وقد يحضر السماع قوم من الفجرة، فيبكون وينزعجون لأغراض خبيثة انطووا عليها، ويراؤون الحاضرين بأن سماعهم للأسباب المذكورة في الأقسام الستة، وهذا قد جمع بين المعصية وبين إيهام كونه من الأولياء، وقد يحضر السماع قوم قد فقدوا أهاليهم ومن يعز عليهم ويذكرهم النشيد فراق الأحبة وعدم الأنس بهم، فيبكي أحدهم ويوهم الحاضرين أن بكاءه لأجل رب العالمين، وهذا مرائي بأمر غير محرم.

فصل: لا يحصل السماع المحمود إلا عند ذكر الصفات الموجبة للأحوال السنية والأفعال المرضية ولكل صفة من الصفات حال يختص بها، فمن ذكر صفة الرحمة أو ذكر بها كانت حاله حال الخائفين وسماعه سماع الخائفين، ومن كان حاله المحبة فذكر جمال المحبوب أو ذكر به كانت حاله حال المحبين وسماعه سماع المحبين، ومن كانت حاله حال المعظمين الهائبين فذكر العظمة أو ذكر بها كانت حاله حال المعظمين وسماعه سماع الهائبين المعظمين، ومن كان حاله التوكل فذكر تفرد الرب بالضر والنفع والخفض والرفع والتقريب والإبعاد، فذكر ذلك أو ذكر له في السماع كان حاله حال المتوكلين المفوضين وسماعه سماعهم، وقد ينتقل كثير من الناس في السماع بين هذه الأحوال فينتقل من حال إلى حال على حسب اختلاف التذكير، وقد يغلب الحال على بعضهم بحيث لا يصغي إلى ما يقوله المنشد ولا يلتفت إليه لغلبة حاله الأولى عليه.

وقال صاحب كتاب معيار المريدين: أما بعد، فهذا ذكر الفرق التي غلطت في الإباحة والحلول والاتحاد والتجسيم وبيان عوارهم والرد عليهم.

اعلم أن منشأ أغاليطهم جهلهم بأصول الدين وفروعه، حيث تركوا العلم ومتابعته، واتبعوا شهوات النفوس. قال الله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣] وقال رسول الله ﷺ: «**اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر**»[١] وقال رسول الله ﷺ: «**أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم**»[٢].

اعلم أن من ليس معه سراج العلم ومشعلة العلم فلا تشكن في إغواء الشيطان اللعين إياه، وقد حذّر الله تعالى عباده من موالاة الشيطان في كثير من الآيات: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] فيجب على طالب العلم اتباع الحق الذي يصح به الإيمان واعتقاده وتوحيده وعلمه حتى يكون عارفاً بالله تعالى وعاملاً في الله ومخلصاً لله، والعلم النافع المنجي هو علم الشريعة والطريقة.

---

(١) رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، حديث رقم (١ ـ ٤٤٥٥) [٣/ ٧٩] والترمذي في سننه، باب في مناقب أبي بكر وعمر..، حديث رقم (٣٦٦٢) [٥/ ٦٠٩] ورواه غيرهما.

(٢) أورده ابن عبد البر في التمهيد [٤/ ٢٦٣] والقرطبي في الاستذكار، باب غسل رأس المحرم..، [٤/ ٧] وقال العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٣٨١) [١/ ١٤٧]: «رواه البيهقي وأسنده الديلمي عن ابن عباس بلفظ: «**أصحابي بمنزلة النجوم في السماء بأيهم اقتديتم اهتديتم**».

قال ﷺ: **«العلم علمان علم باللسان فذلك حجة الله على العباد وعلم في القلب فذلك هو النافع»**(١) وقال ﷺ: **«خير الدنيا والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل»**.(٢)

وقال في كتاب الفردوس: روى أبو أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: **«رب عابد جاهل ورب عالم فاجر فاحذروا الجهال من العباد والفجار من العلماء»**(٣).

وقال علي رضي الله عنه: ما قطع ظهري في الإسلام إلا رجلان عالم فاجر وناسك مبتدع، فالعالم الفاجر يزهد الناس في علمه لما يرون من فجوره، والناسك المبتدع يرغب الناس في بدعته لما يرون من نسكه.

وعن الشعبي رحمه الله أنه قال: اتقوا الفاجر من العلماء والجاهل من المتعبدين فإنهما آفة كل مفتون.

وقال ﷺ: **«هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل، وشر الشرار شرار العلماء وخير الخيار خيار العلماء»**(٤)، وقال ﷺ: **«يكون في آخر الزمان عباد جهّال وعلماء فسّاق»**(٥).

قال صاحب العوارف: قوله: **«عباد جهال»** أراد أصحاب الرستاق فغالباً يحصل لهم أقل ضوء في الباطن بسبب سلامة النفس وترك الفضول وكثرة الكلام، ولا يكون لهم سابقة علم، ولا يطيعون أمر شيخ رباني عالم صمداني، فمثالهم كالشجرة الدقلة غير المثمرة مع الأزهار لانتشائها بنفسها ولم يصل إليها ضروب التربية فإنها الأصل في العبودية حتى لا يغتر بحاله ولا يعجب بنفسه، ويكون مثال عبادتهم مع الجهل كالبنيان على الرماد، ولا يكمل حالهم أصلاً، ولا يكون لهم علم الولاية أبداً، لأنه ليس مبنياً على قانون الشريعة وآداب الطريقة، فيغلب عليهم وساوس الشيطان وهواجس النفس، فيدلهم على التلبس وترك الأسباب واكتساء الخلقان، وإظهار

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

(٢) هذا الحديث لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٣) الفردوس بمأثور الخطاب، حديث رقم (٣٢٤٩) [٢/٢٦٨].

(٤) أورده الهروي في المصنوع [١/ ٣٨٥] والعجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٨٨٣) [٢/ ٤٤٢].

(٥) رواه الحاكم في المستدرك بلفظ: **«يكون في آخر الزمان عباد جهّال وقرّاء فسقة»** (كتاب الرقاق، حديث رقم (٧٨٨٣) [٤/ ٣٥١] ورواه بلفظه الديلمي في الفردوس عن أنس بن مالك، حديث رقم (٨٧١٧) [٥/ ٤٥٢].

الأشكال الغريبة والأفعال العجيبة، والإقامة في المواضع المنكرة مع السكوت ليغتر الناس بها، فتقضي بهم هذه الأحوال والأفعال والأشكال إلى اصطياد الناس والصيت بينهم بطريق الرياء والسمعة استجلاباً للرزق، فهم الدجالون الشاذون لهذه الأمة اختاروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية.

وقال صاحب العوارف: لا شك أن النفس مجبولة على الباطل ومنتفرة عن الحق، والدليل على ذلك حكاية نوح عليه السلام ودعوته الناس تسعمائة وخمسين سنة، فلم يتبعه إلا تسعون نفساً، والسامري كان كافراً وعالماً بالسحر، فعمل بيده عجلاً من الحلي، ونفخ فيه، وظهر فيه صوت رعد، فدعا الناس إليه وقال: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٨٨] فقبل منه سبعون ألفاً واتبعوه، فعلم من هذا البيان أن أصل العرفان لا يظهر إلا لمن له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، حتى يرى الحق بالحق والباطل بالباطل.

وقال صاحب العوارف: ولهذا قال ﷺ: **«ما اتخذ الله ولياً جاهلاً»**(١).

قال: فإن قيل: رأينا من لا يكون له علم الصورة واصلاً إلى حقيقة العلم، قلنا: مسلم له وهو نادر ولا حكم للنادر، فإن تبين ذلك فلا بد من لوازمه أن يوفقه الله بالعبودية على وفق أساس الشريعة، لأن الجهل تنتجه النفس الأمّارة بالسوء، ومن لوازم أصحاب الولاية النفس المطمئنة، ومن شرائط أهل الولاية أن يكون عالماً بالأوامر الشرعية، وسالكاً فيها وكاملاً في عرفان الحقيقة، وواصلاً إليها ومحصلاً لجميع ذلك، حتى يتم له السلوك، ويشرف بعالم الوصال.

فالله الله أيها الطالب، الحذر الحذر من صحبة الأشرار فإنهم قطاع طريق، واعتصموا بحبل القرآن والأحاديث النبوية.

وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله تعالى: اجتنبوا صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلون، والقراء المداهنون، والمتصوفة الجاهلون. فافهم ولا تغلط فالدين واضح.

---

(١) أورده الهروي في المصنوع [١/٢٦٨] وتتمته حسبما اشتهر على ألسنة الناس **«ولو اتخذه لعلّمه»**.

باب في الاتحاد
والدليل على بطلانه

اعلم أنه قد وقع في عبارة بعض المحققين لفظ الاتحاد إشارة منهم إلى حقيقة التوحيد، فإن الاتحاد عندهم هو الغلو في التوحيد، والتوحيد معرفة الواحد والأحد، فاشتبه ذلك على من لا يفهم إشاراتهم، فحملوه على غير محمله، فغلطوا وهلكوا بذلك.

فصل: الدليل على بطلان اتحاد العبد مع الله تعالى، أن الاتحاد بين مربوبين محال، فإن رجلين مثلاً لا يصير أحدهما عين الآخر لتباينهما في ذاتهما كما هو معلوم، فالتباين بين العبد والرب تعالى أعظم.

فإذاً أصل الاتحاد باطل، وحيث يطلق الاتحاد ويقال: هو هو، لا يراد ما هو محال في نفس الأمر، وإنما يكون بطريق التوسع والمجاز، كقول الشاعر: أنا من أهوى ومن أهوى أنا، فالشاعر لا يعني أنه هو تحقيقاً بل كأنه هو، والعبد الموحد إذا عرف الحق الواحد، وانتفت عنه الكثرة، فهذا المقام سمي بلسان المجاز اتحاداً وبلسان الحقيقة توحيداً.

بيان ذلك أن المؤمن معه نور هو سر الله تعالى يصاحب العبد، به يطلب الله تعالى، ويذكره، وبه يريده، ويعرفه، وبه يوحده، ويحبه، ويشاهده، ولولا ذلك النور من الله تعالى معه لا طلبه ولا أراده ولا ذكره ولا عرفه ولا أحبه، كما قيل: لا يحمل عطاياه ولا مطاياه، فمن رفع الله تعالى الحجاب عنه، وأشرق على قلبه النور الرباني، واستنار بالنور، وخرج من ظلمة وجوده، صار الحكم للغالب ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] فعند ذلك تعدم آثار بشريته لغلبة ما تأثر به من النور الرباني فيكون كما قال الشاعر: أنا من أهوى ومن أهوى أنا.

ومن هذا الموضع قامت الدعوى وما تكلمت به الرجال والمحققون من الاتحاد والسبحانية لم يريدوا بذلك ظهوراً على العالم وافتخاراً عليهم، وإنما أرادوا محو

أنفسهم وإثبات الحق سبحانه، وأيضاً في هذا المقام ربما يجري على لسان بعضهم هو الطالب والمطلوب، وهو الذاكر والمذكور، وهو المحب والمحبوب، وهو الشاهد والمشهود، إضافة إلى السر الذي يصاحبه من الله تعالى فعند ذلك يظن المحجوب الجاهل بسنة الله تعالى أنه اتحاد حقيقة.

وشبّهوا ذلك بضوء السراج والكواكب مع نور الشمس وغلطوا في ذلك، فإن ضوء السراج له وجود في نفسه ما اتحد بنور الشمس بل استتر عنه غلبه نور الشمس ولو كان هذا اتحاداً لكان ينبغي إذا غربت الشمس أن يغرب معها ضوء السراج والكوكب، وليس كذلك، بل اتحاد العبد مع الرب تعالى وحلوله فيه محال باطل بإجماع المسلمين الأنبياء والأولياء ومشايخ الصوفية وسائر العلماء، وليس هذا مذهب الصوفية، وإنما هذا مذهب الطائفة الحلولية، قالوا: هذا اتحاد العبد مع الله تعالى لقلة علمهم وسوء حظهم من الله تعالى، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [آل عِمرَان: ١٧٦] فشابهوا بهذا القول النصارى الذين قالوا في عيسى عليه السلام: اتحد ناسوته بلاهوته، - الناسوت هو الإنسان واللاهوت هو الإله - وكل ذلك باطل مردود، واتحاد العبد بالله تعالى محال، وأما من حفظه الله تعالى بالعناية الأزلية إذا وصل إلى هذا المقام علم أن هذا غلبة نور الحق سبحانه على نور العبد، واستتار نوره في نور الحق تعالى، وليس اتحاداً ولا حلولاً، وسموا هذا المقام: مقام الجمع وجمع الجمع وعين الجمع، لوجود القرب البليغ من الحق تعالى لا بالمكان بل بالقبول، ورفع الحجاب، وإظهار التجلي في سره، فإن مشرب خواص العباد إنما هو من مشاهدة نور الحق سبحانه، ومعنى الجمع على اصطلاحهم، أن يشاهد الحق عند فعله بقلبه، وجمع الجمع، أن يشاهده بسره دائماً، ويشاهد ما دونه، وهو التمكين. وهذا المقام إنما يتحقق للعارف بأن ينظر في حال وجوده إلى نفسه فيراه كما كان في حال العدم، ويعرف أن قدرة الله التي معه اليوم هي القدرة التي كانت في الأزل، ويقول أنا أسير القدرة الأزلية، أرى اليوم نفسي كما كنت في الأزل، فما كان له قبل الوجود اختيار، فكذلك لا يكون له بعد الوجود اختيار فيوكل أمره إلى الله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المُزمّل: ٩] فلا يكون كما يريد هو بل يكون كما يراد به، وهذا مقام التسليم والرضى بما قضى.

فصل: لو كان العبد متحداً مع الله تعالى لكان ينبغي أن يكون عالماً بالذات كما أن الله عالم بالذات، فوجب أن يعلم جميع المعلومات لا يخفى عليه شيء في

الأرض ولا في السماء، كما أن الله تعالى كذلك، ويستحيل في العالم شيء لا يعلمه، فإن الله تعالى بكل شيء عليم لا يخفى عليه شيء، ومن المعلوم ضرورة أن أمر العبد بخلاف ذلك، وقد قال تعالى لخير خلقه: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٩] وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف: ١٨٧] وقال: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] فهو الذي شرّفه الله تعالى بقوله: لولاك ما خلقت الأفلاك، ولما وصل ليلة أسري به إلى مقام لم يصل إليه أحد قط من المخلوقات نادى إسرافيل وقال: [محمد حي كذا فوفقه الله العجز عن إتيان ثنائه][1] فقال أولاً: أعوذ بعفوك من عقابك، ثم عبّر عن صفة الفعل، وقال ثانياً: أعوذ برضاك من سخطك، فعبّر عن صفات الذات وقال ثالثاً: أعوذ بك منك، وترقى من تلك المقامات واعترف بالعجز عن إتيان ثنائه فقال ﷺ: «**لا أحصي ثناء عليك**»[2].

فهذه مقامات شريفة وكرامات منيفة وهي مع هذا مخصوصة بصفة الإثنينية من حيث الإضافة إلى صفة أنت وأنا، فعبّر بالعواطف اللاهوتية حتى وصل بإيصاله إلى سرادقات الهوية ونطق بكمال توحيدات الأحدية بقوله ﷺ: «**أنت كما أثنيت على نفسك**» وإذا عرفت ذلك في العلم فكذلك في القدْرة فإن الله تعالى قادر على جميع المقدورات ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ويعلم ضرورة أنه لم يقدر أحد من الأنبياء والأولياء على ذلك، إذ لو كان قادراً لعمل لنفسه كل ما شاء حيث شاء ويؤخر في أجله إذا أراد ذلك. وكذلك السمع والبصر وجب أن يسمع كل المسموعات في السموات والأرضين وما تحت الثرى، فإن الله لا يخفى عليه شيء من المسموعات والمبصرات، وكذلك وجب لمن يدعي الاتحاد أن يحيا حياة لا يموت أبداً، كما أن الله حي لا يموت أبداً، ومعلوم من أحوال الناس خلاف ذلك.

فصل: من ليس له قدم راسخ في المعقولات ربما يغلط حين ينظر في مرآة، أو مياه لاح فيها صورته، فيظن أن تلك الصورة هي صورة وجهه في المرآة وليس كذلك، وينظر في المرآة ويرى وجهه في المرآة وهو لا يشك أن وجهه ما حل في المرآة ولا اتحد بها، كذلك نور الحق تعالى إذا تجلى في مرآة قلب العبد عند صفائه

---

(١) كذا بالأصل، والجملة مضطربة.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (٤٨٦) [١/ ٣٥٢] والحاكم في المستدرك، كتاب الوتر، حديث رقم (١١٥٠) [١/ ٤٤٩] ورواه غيرهما.

ما حل في قلبه ولا اتحد به، وكذلك المرآة المصقولة إذا حاذت جرم الشمس ينطبع فيها نور الشمس لا محالة، فلا يكون النور المنطبع فيها نفس الشمس، فكذلك نور الصفات والذات إذا ظهر في مرآة القلب فلا يكون نفس الصفات والذات.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣] فالحق جلّ جلاله حين تجلى للجبل ما حلّ في الجبل، وإنما ظهر كما قلنا في مثال المرآة فافهم، فإن الاتحاد والحلول باطل مردود شرعاً وعقلاً وعرفاً.

مسألة: قد يذكر الاتحاد بمعنى فناء المخالفات وبقاء الموافقات، وفناء حظوظ النفس من الدنيا وبقاء الرغبة في الآخرة، وفناء الأوصاف الذميمة وبقاء الأوصاف الحميدة، وفناء الشك وبقاء اليقين، وفناء الغفلة وبقاء الذكر.

فصل: قول من قال: سبحاني ما أعظم شأني، لا إله إلا أنا فاعبدني، يحمل على الحكاية، وكذلك قول من قال: أنا الحق، وأنا الله، محمول على الحكاية، ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد، لأن ذلك غير مظنون بعاقل فضلاً عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات.

وقال بعضهم: معنى قول أبي يزيد رحمه الله إن صح عنه: سبحاني ما أعظم شأني، كقوله: رحماني ورباني وسلطاني، إضافة إلى نفسه، وما أعظم شأني إذ أنت سبحاني، يعني أنت لي، وقيل: علو الهمة أجرى على لسان أبي يزيد سبحاني وعلى لسان غيره: أنا الحق، وأنا الله، تحققاً بقول النبي ﷺ: «**تخلقوا بأخلاق الله**»[1].

---

(١) أورده المناوي في التعاريف، فصل اللام [١/ ٥٦٤] والجرجاني في التعريفات، باب الفاء، تعريف رقم (١٠٩٩) [١/ ٢١٦].

باب في ذكر الحلول
والدليل على بطلانه والرد عليهم

قال رسول الله ﷺ: **«إن الله احتجب عن أهل السماء كما احتجب عن أهل الأرض، واحتجب عن العقول كما احتجب عن الأبصار، وأنه ما حل في شيء ولا غاب عن شيء، وأن الملأ الأعلى يطلبون الله كما تطلبون أنتم»**[١] قوله: **«ما حل في شيء»** لأن الحلول من خاصية الأعراض، وقوله: **«وما غاب عن شيء»** إنما قال ذلك كي لا يشتبه على السامع فيظن أنه إذا لم يكن حالاً في الأجسام كان بعيداً عن عوالم الأجسام.

اعلم أن الحلول لا يتصور أن يقال: إن الدهر الرب تعالى الله عن ذلك، وذلك لأن المفهوم من الحلول أمران: **أحدهما**: النسبة التي بين الجسم وبين المكان الذي يكون فيه، وذلك لا يتصور إلا بين جسمين، فالرب مبرأ عن معنى الجسمية يستحيل في حقه مثل ذلك، **الثاني**: النسبة التي بين العرض والجوهر، فإن العرض قوامه بالجوهر فقد يعبر عنه بأنه حال فيه وذاك محال على كل ما قيامه بنفسه، فلا يتصور الحلول بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب تعالى؟ فإذاً بطل الاتحاد والحلول لأن المعقول من الحلول إحاطة المحل بالحال كإحاطة الظرف بالمظروف، فبطل قول النصارى إن اللاهوت حلّ في الناسوت، يعني بطل قولهم بحلول الله تعالى في جسد عيسى عليه السلام، إذ لو فرض حلول اللاهوت في هيكل المسيح لكان جسد المسيح أكبر مما حلّ فيه، فيكون الجسد البشري أكبر من الذات الإلهي وأنه محال تعالى الله عن ذلك.

فصل: وأما قول النبي ﷺ: **«تخلّقوا بأخلاق الله»**[٢] معناه اتصفوا بالصفات

---

(١) هذا الأثر لم أجده فيما لدي من مصادر ومراجع.

(٢) هذا الحديث سبق تخريجه.

المحمودة أو تنزّهوا عن الصفات المذمومة، وليس معناه أن نأخذ من صفات القدم شيئاً. مثال ذلك كمن يأخذ سراجاً من سراج آخر ويأخذ علماً من عالم آخر لا يأخذ من عين سراجه وعين علمه بل يحصل له من إشراق سراجه سراج آخر ومن إضافة علمه علم آخر، فإن صفات الله تعالى قديمة لا تصير صفة لغيره لاستحالة كون القديم صفة لحادث، ولا يظن بالعقلاء المتميزين على أهل زمانهم بالعلم الراجح والعمل الصالح والمجاهدة وحفظ حدود الشرع الغلط بالحلول والاتحاد مع كون الله تعالى منعهم بالتوفيق والرعاية، كما غلط النصارى في ظنهم اتحاد اللاهوت بالناسوت في حق عيسى عليه السلام.

فصل: وأما الخبر الإلهي «**كنت له سمعاً وبصراً**»[1] الحديث، فليس في هذا الخبر أن العبد متحد بالله تعالى، وأن الله تعالى يتحد بالعبد، أو يحل فيه، بل معنى قوله: «**كنت له سمعاً وبصراً**» كقوله له: «**خالقاً ورازقاً، بي يتخلق وبي يرتزق**» وهذا جواب كاف، ولكن حقيقة الأمر في ذلك أن المراد من قوله: «**كنت له سمعاً وبصراً**» أي أتجلى له بصفة سمعي وبصري فيتقوى بهذا التجلي ما سمعه الباطن وبصره الظاهر، فيسمع بهذا التجلي ما لم يكن يسمع من قبل، ويبصر ما لم يكن يبصر من قبل. مثال ذلك رجل صحيح الحاسة في بيت مظلم وفيه أشياء لا يراها، فلو أشعل مشعلة رأى بضيائها الأشياء الحاضرة ثمة، ولا شبهة أنه إنما يراها بضياء الشمعة، ولا شبهة أن ضياء المشعلة لم يتحد به ولم يصر جزءاً له، وإن كان إنما يرى ما رأى بها.

وإيضاح ذلك أن نور الحق سبحانه إذا تجلى على نور العبد استتر نور العبد في نور الحق تعالى كما يستتر نور الكواكب عند طلوع الشمس فيصير نور الحق غالباً ونور العبد مغلوباً، فكان الحكم للغالب ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١] فحينئذ ما بقي للعبد تصرف بنفسه وإنما تصرفه بربه تعالى، لأن الله تعالى يصرف عنه دواعي الباطل ويزين له دواعي الحق، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَ﴾ [الحجرات: ٧] وذلك داعية الباطل، فحينئذ يعصمه من ارتكاب المعاصي، ويحفظه من التقصيرات في الفرائض وحدود الشرع، وينكشف له جلية الحق ويصير مستغرقاً به، فإن هو نظر إلى معرفته فلا يعرف إلا الله، وإن نظر إلى توحيده فلا يرى غير الله، وإن نظر إلى همته فلا همة له سواه، فيكون كله مستغرقاً به مشاهدة وهمة، وذلك من حصل له طهارة الظاهر والباطن وتهذيب

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

الأخلاق وتذويب النفوس، فتبين بذلك أن الرب تعالى لا يتحد بالعبد، ولا يتحد العبد بالرب، فافهم ولا تغلط، فإن الحلول والاتحاد بطلانهما في الإسلام أظهر من الشمس، لورود النصوص في القرآن برد ذلك.

قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المَائدة: ١٧].

مسألة: تفسير الحلول نزول شيء في شيء آخر على وجه يلازمه كحلول الرطوبة في الماء واليبوسة في النار، أو كالبرودة في الماء والحرارة في النار، فإن ذلك لما حل في ذلك الجرم يلازم محله على وجه يتنقل بانتقال محله، ويقف بوقوف محله، وينعدم بانعدام محله.

فصل: إن الله تعالى محال في حقه الحلول والجوار والاتصال بالمخلوق، وعرفنا ذلك بالقرآن والحديث وإجماع الأنبياء والأولياء عليهم السلام.

واعلم أن الحلول إنما حدث في الإسلام من واقعات الجهلة المتصوفة حيث رأوا الله في مناماتهم أقرب إليهم من حبل الوريد، فظنوا أنه فيهم حال وليس ذلك حلولاً وإنما هو وجدانك القرب كقرب ضياء الشمع في البيت من هواء البيت، وليس ذلك حلولاً، بدليل أنه لا يلازمه على وجه ينقلب مع محله وينعدم بانعدام محله، ألا ترى أن الهواء يخرج من باب البيت وكواته، ولا يخرج الضياء معه، وينعدم الضياء الذي كان معه في البيت إذا انطفى السراج، ولا ينعدم الهواء في البيت، فدلّ على أن الضياء غير حال في ذلك الهواء في مسألتنا، وقد يفكر السالك في علم النفس والهواء فيرى في المنام والحال أنه الرب، فتكون الرؤيا صحيحة محتاجة إلى التأويل والتعريف، والتعبير هنا أن ذلك الشخص يعبد عهد نفسه يحبها ويعمل لها ما تحب، فيكون يعد ممن اتخذ إلهه هواه، قال الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣] وقال النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم**»[1] الحديث، فيرى في الواقعة أنه الرب المعبود فيجب عليه أن يتجنب من طاعة النفس والهوى ويكسرها بالمجاهدة والرياضة ولا يظن ذلك المحال وبالله التوفيق.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: باب الحراسة في الغزو، حديث رقم (٢٧٣٠) [١٠٥٧/٣] وابن ماجة في سننه، باب في المكثرين، حديث رقم (٥ ـ ٤١٣٦) [٢/٥ ـ ١٣٨٦] ورواه غيرهما.

المورد العذب لذوي الورود
في
كشف معنى وحدة الوجود

تأليف

الشيخ القطب مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري

المتوفى ١١٦٢هـ

تحقيقه وتخريجه وتعليقه

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

ترجمة الشيخ مصطفى البكري*

١٠٩٩ هـ - ١١٦٢ هـ

قال الجبرتي: هو الأستاذ الأعظم قدوة السالكين وشيخ الطريقة والحقيقة ومربّي المريدين الإمام المسلك الخلوتي. لما ارتحل إلى إسلامبول لبس فيها ثياب الخمول، ومكث فيها سنة لم يؤذن له بارتحال ولم يدرِ كيف الحال، فلما كان آخر السنة قام ليلة فصلّى على عادته من التهجّد، ثم جلس لقراءة الورد السحري، فأحبّ أن تكون روحانية النبي ﷺ في ذلك المجلس، ثم روحانية خلفائه الأربعة والأئمة الأربعة والأقطاب الأربعة والملائكة الأربعة، فبينما هو في أثنائه إذ دخل عليه فشمّر عن أذياله كأنه يتخطّى أناساً في المجلس حتى انتهى إلى موضع فجلس فيه، ثم لما تمّ الورد قام ذلك الرجل فسلّم عليه ثم قال: ماذا صنعت يا مصطفى؟ فقال له: ما صنعت شيئاً، فقال له: ألم ترني أتخطى الناس؟ قال: بلى إنما وقع لي أني أحببت أن تكون روحانية من ذكرناهم حاضرة، فقال له: لم يتخلّف أحد ممن أردت حضوره. وما أتيتك إلا بدعوة، والآن أذن لي في الرحيل وحصّل الفتح والمدد، والرجل المذكور هو الوليّ الصوفي السيد محمد التافلاتي؛ ومتى عبر السيد في كتبه بالوالد فهو السيد محمد المذكور، وقد رأى سيدي مصطفى البكري النبي ﷺ وقال له: من أين لك هذا المدد؟ فقال: منك يا رسول الله، فأشار أن نعم. ولقي الخضر عليه السلام ثلاث مرات. وعرضت عليه قطبانية المشرق فلم يرضها. وله مؤلفات نافعة كثيرة. وقد أحيا الطريقة الخلوتية ولم يرَ أحد من عصره إلى الآن من مشايخها نظيره.

وقال المرادي في «سلك الدرر» مصطفى البكري بن كمال الدين بن علي بن كمال الدين بن عبد القادر محيي الدين الصديقي الحنفي الدمشقي البكري الأستاذ الكبير والعارف الرباني الشهير صاحب الكشف والواحد المعدود بألف. صاحب

---

* هذه الترجمة هي للشيخ يوسف النبهاني من كتابه جامع كرامات الأولياء [٢/ ٣٨٧ - ٣٩٣] طبعة دار الكتب العلمية - بيروت.

العوارف والمعارف والتأليف والتحريرات والآثار التي اشتهرت شرقاً وغرباً، وبعُد صيتها في الناس عجماً وعرباً، أحد أفراد الزمان، من العلماء الأعلام والأولياء العظام، العالم العلاّمة الأوحد أبو المعارف قطب الدين. ولد بدمشق ١٠٩٩هـ ونشأ يتيماً، واشتغل بطلب العلم، وقرأ على مشاهير العلماء، وأجاز له الشيخ محمد البديري الدمياطي الشهير بابن الميت، والشيخ محمد عقيلة المكي، والشهاب أحمد النخلي المكي، وعبد الله بن سالم البصري المكي، وجميعهم أجازوا له، ولازم الأستاذ الشيخ عبد الغني النابلسي، وقرأ عليه كتب التصوُّف لسيدي محيي الدين وطرفاً من الفقه، وأخذ الطريقة الخلوتية غن الشيخ عبد اللطيف الحلبي، وسمعه مرة يقول: الجنيد لم يظفر طول عمره إلا بصاحب ونصف، فقال له: وكم ظفرتم أنتم ممن يوصف بالتمام؟ فقال له: أنت إن شاء الله تعالى، ثم توفي الشيخ واجتمع تلاميذه عليه وجدّدوا أخذ البيعة عنه، فشاع خبره وذاع أمره وكثرت جماعته وانتشرت ألويته، وسافر إلى بلاد كثيرة منها القسطنطينية وبلاد الروم والعراق وحلب والموصل وبلاد الشام ولبنان وبغداد والقدس ومصر والحجاز، وفي كل هذه البلاد انتشرت عنه الطريق وعمّ الإرشاد وزار مَن فيها من الأولياء أحياءً وأمواتاً، وأقام في القدس مدة طويلة، ولم يترك التأليف سفراً وحضراً، وأخذ العهد العام على جميع طوائف الجن أن لا يؤذوا أحداً من مريديه الذين أخذوا عنه أو عن ذريته بمشهد كان فيه السيد محمد التاقلاتي مفتي القدس وغيره من المريدين، وأخذ عنه خلائق كثيرون، ومن الجن سبعة ملوك وأسماؤهم محرّرة في بعض مؤلفاته. ولما توجه إلى مصر تلقاه الأستاذ الحفني أعظم خلفائه، ومعه خلائق كثيرون من علماء مصر ووجوه أهلها، وأفرد له داراً وأقام هناك مقبلاً على الإرشاد والناس يهرعون إليه مزدحمين عليه...

وقال الشيخ حسن بن علي شمّة المصري الفوي في كتابه الذي ألّفه في مناقب شيخه الحفني أعظم خلفاء سيدي مصطفى البكري: أخبرني أستاذي عنه: أي عن شيخه السيد مصطفى البكري، أنه جمع مناقب نفسه في مؤلَّف بلغ نحو أربعين كرّاساً تسويداً في الكامل ولم يتم، وقد رأى النبي ﷺ مرة في النوم وقال له: من أين لك هذا المدد؟ فقال: منك يا رسول الله، فأشار أن نعم، ولقي الخضر عليه السلام ثلاث مرات، وعرضت عليه قطبانية المشرق فلم يرضها، قال: وأخبرني من أثق به أنه كان إذا مشى على أرض فُرش له بساط من نور يمشي عليه، حتى سار مع بعض أولياء عصره مرة، فقلع ذلك الوليّ نعله فقال: لمَ فعلت ذلك؟ قال: أستحي أن أمشي على بساط كرامتك بنعلي. وكان أكرم من السيل وأمضى في السرّ من السيف، وأوتي

مفاتيح العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره ومحققوه في مشارق الأرض ومغاربها، وأخذ على رؤساء الجنّ العهود وعمّ مدده سائر الوجود، وسمعت أستاذنا، يعني القطب الحفني يقول بعد وفاته: إني أود الآن لو كان أستاذنا الصديقي حياً وأكون خادماً له فقط وأحظى بلثم أعتابه، قال: ثم حجّ مولانا السيد الصديقي عام إحدى وستين، وعاد من الحجاز إلى القاهرة فمرض عقب دخوله مدة شهر، فحان مولد السيد البدوي، فأراد الشيخ أستاذنا الحفني أن يتخلّف عن الذهاب إليه لأجل السيد، فأشار إليه بعدم التخلُّف، فتوجه أستاذنا إلى المولد الشريف، فتوفي السيد الصديقي وهو في المولد ليلة الثاني عشر من شهر ربيع الثاني عام ١١٦٢هـ، ودُفن بالقرافة الكبرى خارج القاهرة، وقبره ثمَّ مشهور، بزيارته تضاعف الأجور، وقد عمل له أستاذي في شهر شعبان من هذا العام مولداً عظيماً شدّت إليه الرحال، وحطت لديه الأثقال، وتطاولت دونه الآمال.

وبالجملة فمناقب هذا السيد الجليل تجلّ عن التعدُّد، انتهى كلام الشيخ حسن شمّة باختصار.

ومن أعظم كراماته: كثرة مؤلفاته نظماً ونثراً مع اشتغاله بالطريق والأسفار في الأقطار وأنواع العبادات والاجتماعات مع الناس. قال الشيخ حسن شمة: وتآليفه تقارب المائتين، وأحزابه وأوراده أكثر من ستين. قال المرادي: وألّف مؤلفات نافعة، منها: شرحه على الهمزية، وشرحه على ورد الوسائل، وشرحه على حزب الإمام الشعراني، وشرحه على قصيدة المنفرجة لأبي عبد الله النحوي، وشرحه على قصيدة الإمام أبي حامد الغزالي التي أولها:

الشدة أودت بالمهج يا ربّ فعجّل بالفرج

وشرحه على بيت من تائية ابن الفارض، وله اثنتا عشرة مقامة واثنتا عشرة رحلة، وسبعة دواوين شعرية، وألفية في التصوُّف، وتسعة أراجيز في علوم الطريقة، ورسالة سماها تبريد، وقيّد الجمر في ترجمة الشيخ مصطفى بن عمرو، ومرهم الفؤاد الشجي في ذكر يسير من مآثر شيخنا الدكدكجي. والمنهل العذب السائغ لوزاده في ذكر صلوات الطريق وأوراده. والروضات العرشية على الصلوات المشيشية. وكروم عريش التهاني في الكلام على صلوات ابن مشيش الداني. وفيض القدوس السلام على صلوات سيدي عبد السلام. واللمحات الرافعات غواشي التدهيش، عن معاني صلوات ابن مشيش. والورد السحري الذي شاع وذاع وعمّت بركاته البقاع وصار ورداً

لا يضاهى وحقائقه لا تتناهى، شهرته تغني عن الوصف والتحرير، ومعانيه ومزاياه لا تحصيها أقلام التحبير، شرحه ثلاثة شرح أحدهما سماه «الضياء الشمسي على الفتح القدسي» في مجلدين ضخمين. والثاني رفيع المعاني سماه «اللمح الندسي على الفتح القدسي» والثالث الذي لكشف أسراره باعث «المنح الأنسي على الفتح القدسي» ومن مؤلفاته: السيوف الحداد في الرد على أهل الزندقة والإلحاد. والفرق المئذن بالطرب في الفرق بين العجم والعرب. وهذان التأليفان من أعجب العجاب لمن كشف له النقاب، فمَن أراد فليراجعهما ففيهما ما تشتهيه القلوب وما تشتاقه من كل مطلوب ومرغوب. والوصية الجنية للسالكين في طريق الخلوتية. والنصيحة الجنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية. والحواشي السنية على الوصية الحلبية. وبلوغ المرام في خلوتية الشام. ونظم القلادة في معرفة كيفية إجلاس المريد على السجادة. وله في الحقيقة مقامات: الأولى: المقامة الرومية والمدامة الرومية. والثانية: المقامات العراقية والمدامة الإشراقية. والثالثة: المقامة الشامية والمدامة الشافية. والرابعة: الصمصامة الهندية في المقامة الهندية. وهي ـ أعني هذه المقامات ـ في أعلى مقام البلاغة والفصاحة. وبلغة المريد ومنتهى موقف السعيد نظماً. وألفية في التصوُّف، وكل ذلك في آداب الطريقة العليّة.

ومن تآليفه رضي الله عنه: تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة. وتسلية الأحزان وتصلية الأشجان. ورشف قناني الصفا في الكشف عن معاني التصوُّف والمتوصف. والصفا والمدام البكر في بعض أقسام الذكر. والثغر البسّام فيمن يجهل من نفسه المقام. والكأس الرائق في سبب اختلاف الطرائق. والتواصي بالصبر والحق امتثالاً لأمر الحق. والوارد الطارق واللمح الفارق. والهدية الندية للأمة المحمدية. والموارد البهية في الحكم الإلهية على الحرُوف المعجمة الشهية. وجمع الموارد من كل شارد. والكمالات الخواطر على الضمير والخاطر. والجواب الشافي واللباب الكافي. وجريدة المآرب وخريدة كل سارب شارب. وهدية الأحباب فيما للخلوة من الشروط والآداب. والكوكب المحمي من اللمس بشرح قصيدة الجيلي سلاف تريك الشمس. ورسالة الصحبة التي انتخبتها الخدمة والمحبة. ورسالة في روضة الوجود ورفع الستر والردا عن قول العارف أروم وقد طال المدى. وأرجوزة الأمثال الميدانية في الرتبة الكيانية. والمطلب الروي على حزب الإمام النووي. وله شرح على ورد الشيخ أحمد العسالي. وشرح على رسالة سيدي الشيخ أرسلان، والبسط التام في نظم رسالة السيوطي المقدام. وله: الدرّ الفائق في الصلاة على أشرف الخلائق. والفيوضات

البكرية على الصلوات البكرية لسيدي محمد البكري الكبير. والصلاة الهامعة بمحبة الخلفاء الجامعة. ونيل وفا على صلوات سيدي على الوفا. والمدد البكري على صلوات البكري، صلوات أخرى غير السابقة لسيدي محمد البكري. والهبات الأنورية على الصلوات الأكبرية، لسيدي محيي الدين بن العربي، واللمح الندية في الصلوات المهدية، والنوافح القريبية الكاشفة عن خصائص الذات المهدية. والهدية الندية للأمة المحمدية فيما جاء في فضل الذات المهدية. وله رضي الله عنه: نظم أحاديث نبوية ومقدمة أربعون حديثاً وخاتمة سنية. والأربعون الموروثة الانتباه فيما يقال عند الانتباه. وله رضي الله عنه: تفريج الهموم وتفريق الغموم في الرحلة إلى بلاد الروم. والخمرة المحسية في الرحلة القدسية والحلة الذهبية في الرحلة الحلبية والحلة المغنية. رسوم الهموم والغموم في الرحلة الثانية إلى بلاد الروم. والثانية الإنسية في الرحلة القدسية. وكشط الصدا وغسل الران في زيارة العراق وما والاها من البلدان. والفيض الجليل في أراضي الخليل. والنحلة النصرية في الرحلة المصرية. وبرء الأسقام في زمزم والمقام. وردّ الإحسان في الرحلة إلى جبل لبنان. ولمع برق المقامات. العوال في زيارة سيدي حسن الراعي وولده عبد العال. وله رضي الله عنه بهجة الأذكياء في التوسُّل بالمشهور من الأنبياء. والابتهالات السامية والدعوات النامية. والورد المسمى بالتوجه الوافي والمنهل الصافي. والتوسلات المعظمة بالحروف المعجمة. والفيض الوافر والمدد السافر في ورود المسافر. والورد الأسنى في التوسُّل بأسمائه الحسنى. وسبيل النجاء والالتجاء في التوسل بحروف الهجاء. وأوراد الأيام السبعة ولياليها.

وقد ترجم رضي الله عنه كثيراً من مشايخه وممن اجتمع عليهم. فمن ذلك: الكوكب الثاقب فيما لشيخنا من المناقب. والثغر الباسم في ترجمة الشيخ قاسم. والفتح الطريّ الجنيّ في بعض مآثر شيخنا عبد الغني. والصراط القويم في ترجمة الشيخ عبد الكريم. والدرر المنتشرات في الحضرات العندية في الغرر المبشرات بالذات العبدية المحمدية. وله ديوان الروح والأرواح. وله عوارف الجواد التي لم يطرقهن طارق، قد أبدع فيه وأغرب، وجعله مبنياً على ذكر حاله ووقائعه من ابتدائه إلى انتهائه على طريقة الإجمال، هذا ما وقفت عليه ووصل سمعي إليه، وله غير ذلك من التآليف، انتهى ما ذكره المرادي من تأليفاته.

يقول جامعه الفقير يوسف النبهاني عفا الله عنه: وقد وقفت على كثير من مؤلفاته رضي الله عنه ولله الحمد، ورأيت منها بخطه الشريف المقامة الرومية وعليها

تقريظ بخط ناظمه العلامة الشيخ يوسف الحفني صاحب حاشية الأشموني، وهو أخو الأستاذ الحفني الشهير، وهذا هو التقريظ:

تقول مقامات الحريري أن رأت مقامة هذا القطب كالكوكب الدري
تضاءل قدري عندها ولطائفي وأين ثرى الأقدام من أنفس الدرّ
فهذي لأهل الظرف تبدي ظرائفاً وللواصل المشتاق من أعظم السرّ
فكيف ومنشيها فريد زمانه أجلّ همام قال نوديت في سرّ

ورأيت خطه الشريف رضي الله عنه على كتب أخرى له من تآليفه موجودة الآن في القدس الشريف عند آل أبي السعود، الذي أوقف كتبه في حياته من مؤلفاته وغيرها، ووضعها في زاويتهم في جوار المسجد الأقصى، وقد ضاع أكثرها الآن ولم يبقَ منها إلا القليل في أيدي بعضهم. وعندي من تأليفاته عدة كتب مما ذكره المرادي ومما لم يذكره، ومن جملتها: شرح حزب النووي، وعليه خطه الشريف في آخره إجازة لمالكه، وهذه عبارته بنصها: بسم الله الرحمٰن الرحيم الحمد لله العلي العظيم، وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلّم وبعد: فقد أجزت مالك هذا الكتاب الشيخ محمد به وبأصله المشروح، وبما لنا من أوراد وأذكار وصلوات على النبي المختار، قال ذلك ورقمه العبد الفقير إليه تعالى مصطفى سبط آل الحسنين الأحسنين الصديقي عفا الله عنه بمنّه وكرمه، آمين اهـ.

وقد أحببت أن أنقل هنا فوائد تتعلّق بسيدي مصطفى البكري من كتابه «السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد» وعنى بهم الذين يزعمون أنهم من الصوفية ولا يتقيّدون بالأحكام الشرعية، قال رضي الله عنه: قال سيدي عليّ بن علوان: يعني الحموي رضي الله عنه في كتابه المسمى بـ«مصبح الهداية ومفتاح الولاية» وليرغب أي العالم التلامذة في علم السلوك والطريقة والحقيقة بعد ضبط الشريعة، وإلا فالحقيقة بدون الشريعة زندقة، شاهدنا ذلك وخبرناه، بل المرشد الصادق أول ما يندب المريدين إلى أحكام الشرع وضبطه، وتطهير النفس وتصفية القلب وصقله بدوام الذكر والمجاهدة، فإذا تجلّت الحقيقة فيه بعد ذلك كان نوراً على نور، وإن لم يفتح له في الحقيقة فهو على ساحل السلامة في برّ الشريعة ورياض الطريقة، والمتحقق قبل الشرع وحفظه لا وفعلاً هو إلى الزندقة أقرب، إلا أن يكون مجذوباً جذبة ربانية فيصير حينئذ في طور لا يعرفه إلا من شهده، ولربما برز على ظاهره ما هو مخالف للشريعة وهو محقّ من حيث الحقيقة، وشاهد ذلك قصة الخضر مع موسى عليهما الصلاة والسلام

كما تضمّنها الكتاب العزيز والسنّة، ولكن هاهنا مزلّة الأقدام وموطن الدعاوى والغلط، وصحّ في الحديث النبوي الذي رواه الشيخان **«التشبّع بما لم يعط كلابس ثوبَي زور»** وصحّ **«ومَن ادعى دعوى كاذبة ليتكثر بها لم يزده الله عز وجلّ إلا قلة»** رواه مسلم، انتهى.

وأقول: ومما أدركته ذوقاً في نفسي أني إذا نمت على غير طهارة أرى نفسي في تعب وعناء وأماكن خربة وأمور مكدرة، وإذا نمت على الهيئة المسنونة أرى نفسي في بسط وسرور ومحلات نزيهة، حتى أني إذا عجزت عن الوضوء لغلبة نعاس أو شدة برد أتيمم، وإن تركته ونمت فكذلك. وكثيراً ما يتفق لي إذا احتجت اغتسالاً ونمت قبله على غير طهارة أو تيمُم رؤية أمور مهولة تزعجني وربما استفقت منها. ومن ذلك أني أجد عندي نشاطاً ما دمت على طهارة، فإذا أحدثت ولم أتوضأ أجد في باطني ضيقاً وقبضاً. وكذلك إذا فاتني قيام ليلة أجد تغيُراً في باطني في ذلك اليوم ولا أعلم له سبباً إلا عدم القيام مع أنه لا صنع لي فيه.

ومما أشاهده في نفسي إذا مرّ عليّ وقت وكان الاشتغال فيه بالله تعالى أكثر من الغفلة عنه، حصول انفساح وانشراح في قلبي لا يعبّر عنه لساني لأنه أمر وجداني، ويتفق لي إذا غلبني النوم قبل صلاة العشاء، وهذا الوقت يُكره فيه النوم فأحسّ بشيء لين يضرب في وجهي فأستفيق من ذلك، وأعدّ مثل هذا وما شاكله من نعم الله على عبده.

ومما أشاهد تأثيره في القلب المطعم الحرام، فإنه يُحدث ظلمة وغشاوة على القلب لا تزول إلا بمجاهدة من حبس النفس وإشغال القلب بالذكر وإيقاد نار الخوف من الله فيه والشوق الذي يصفيه، وأكثر أهل الطريق إذا أحسُوا بثقله في قلوبهم يستدعون القيء كما فعل الصدّيق رضي الله عنه، وبما ادّعى هؤلاء الرعاع أن قلوبهم كالبحر لا يعكرها الدلاء مع نص أهل الطريق أن ظلمة الحرام تؤثر في قلب كل أحد على حسب مقامه حتى القطب، وفعل الصديق من أقطع حجة وأرفع محجة. ومما نشاهده في نفوسنا إذا وقعت منا هفوة كغيبة أو أذية أحد ولو بالقلب، اختلاف سير القلب وانقباضه وجموده وضيقه حتى كأنه بين جبلين انطبقا عليه، وكلما عظمت المعصية عظم الكرب واشتدّ البلاء، هذا مع سرعة المبادرة للتوبة والاستغفار والاعتراف بالجرم وعدم الإصرار، لكن هذا من لطف الله بعبده حتى ينتبه ويرجز عن المعاصي، ولا يغترّ بأناس أماتت الذنوب قلوبهم واستولت عليها، فلا يحسُون بقسوة

ولا يدركون أثر هفوة. جاء في الحديث الشريف «**إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو على قلبه، وهو الران الذي ذكر الله** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطفّفِين: الآية ١٤] » رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي وغيرهم عن أبي هريرة.

ومما نشاهده إذا أقمنا صلاة بما ينبغي لها نجد لها في القلب نوراً عظيماً حتى نرى الالتفات في الصلاة يضعف تأثيرها لما في الحديث «**إياكم والالتفات في الصلاة فإنها هلكة**» وفيه أيضاً «**ما التفت عبد قط في صلاته إلا قال له ربه: أين تلتفت يا ابن آدم؟ أنا خير لك مما تلتفت إليه**» وفي رواية «**لا تلتفتوا في صلاتكم فإنه لا صلاة لملتفت**» إلى غير ذلك.

والحاصل أن كل عمل من أعمال الشريعة المطهّرة يجد العامل به نوراً أو سروراً، ويورثه قربة وحضوراً، ويكشف الحقّ له به عن قلبه ستوراً، ومَن أخلّ بآدابها ولم يعتصم بأسبابها وادعى وصولاً فهو صادق، لكن إلى سقر أو حصولاً فكذلك لكن على صفات البقر، ولا يحتاج الموفق بعد العيان والوجدان إلى دليل ظاهر أو برهان، فليس بعد العشية من عرار، ولا بعد عبادان من دار، فإن التمسُّك بالشريعة الغرّاء أعظم بركة من نخلة مريم، وأطيب من عطر مِنشم، وإياك أن تفرّق جمع قلبك على الحقّ هذه الفرقة الزنادقة الأسافل، وتمسك بحبل الله المتين، والزم حمى الفرائض والنوافل، فما بعد هدى المصطفى وشريعته المستنيرة حيرة، ولا بعد سيرته العلية وسيرة العمرين والأصحاب سيرة، لكن الأمر كما قال الله تعالى في كتابه الذي هدى به من اهتدى ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾ [الإسراء: الآية ٩٧] انتهى كلامُ سيدي مصطفى البكري باختصار وتصرُّف قليل.

الرسالة الأولى

المورد العذب لذوي الورود في
كشف معنى وحدة الوجود

للعارف بالله تعالى الشيخ
مصطفى البكري

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

[مقدمة المؤلف]

الحمدُ للّهِ فتّاح الوجُودِ، ومنّاح الفَيض والشُهود، مُظْهِر العَالم مِنْ خزائِنِ الجُود، بواسطة أمّهاتِ الأسماءِ[١] بلا جحود، وعنها كان ما كان من الفرشِ إلى العرشِ المصمود، والذَات الإلهية لها الغنى المُطْلَق عن كل موجُود، وعند توجهها للإيجاد الكَوني بالإمدادِ الصُوفي المشهُودِ، أظهرتْ القُدرة حسب مَا خَصّصَتْهُ الإرادَةُ، صُورة مَا فِي العَالَم المُنَزّه عن القُيود، فَبَرَزَ مِثَالُ مَا في الحَضْرةِ الغَيبيّة، للمنزلةِ العَينيةِ ذَاتِ الحدُود، وارتسمَتْ أمثلةُ الحُروف العَاليَاتِ[٢]، في مرايَا المَجالي الغَاليَات، وانْفَتحَ البَابُ المسْدُود، وما شَمّتَ الأعْيَانُ الثَابتَةُ[٣] في العِلْمِ المقصُود، رائحة الوجُود

(١) أمهات الأسماء: وتسمى أصول الأسماء، وأئمة الأسماء، والأئمة السبعة، والحقائق السبعة الكلية، والأسماء الكلية الأصلية وهي سبعة: الحي والعالم والمريد والقائل والقادر والجواد والمقسط. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

(٢) الحروف العاليات: يعنون بها أعيان الكائنات من حيث تعينها في أعلا مراتب التعيُنات التي هي الوحدة، فإن الكائنات هنالك إنما هي شئون الذات لا يصح فيها تكثر في ذاتها، ولا تكثير لغيرها لاستحالة ذلك في الوحدة الحقيقية مع اشتمالها على جميع ما يظهر عنها فتسمى نسب تعينات المبدعات في هذه المرتبة العلمية بالحروف العلوية، وبالحروف العاليات. وهذا هو معنى قول الشيخ في كتابه المسمى بـ«المنازل الإنسانية» رضي الله عنه:

كُنّا حُرُوفاً عَالِيَاتٍ لَمْ تَزَلْ ... مُتَعَلّقَاتٍ فِي ذُرَى أعْلا القُلَلْ
أنا أنتَ فيه ونحن أنتَ وأنتَ هُوَ ... والكُلّ في هُو هو فَسَلْ عَمّنْ وَصَلْ

وذلك لاستحالة الكثرة في أول الرتب لمنافاة الوحدة لها. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

(٣) الأعيان الثابتة: هي حقائق الممكنات في حضرة العلم، سميت أعياناً ثابتة لثبوتها في المرتبة الثانية، لم تبرح منها، ولم تظهر بالوجود العيني إلا لوازمها وأحكامها وعوارضها المتعلقة بمراتب الكون، فإن حقيقة كل موجود إنما هي عبارة عن نسبة تعيُنه في علم ربه أزلاً، ويسمى باصطلاح المحققين من أهل الله تعالى أعياناً ثابتة وباصطلاح الحكماء ماهية، وباصطلاح الأصوليين المعلوم المعدوم، والشيء الثابت، ونحو ذلك، وبالجملة فالأعيان الثابتة والماهيات والأشياء إنما هي عبارة عن تعيُنات الحق الكلية التفصيلية. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

في العينِ لسِرّ إلى القُرْب يَذُود، إذ معلومات القَديم في رُتْبَةِ علمِه قديمة، لعز رواقه ممدود، وتَنزَّه عن سماتِ الحدُوثِ الممشُوقَة القُدودِ.

وقَدْ كانَ سُبْحانَهُ ولا شيء مَعَهُ(١)، في الأزَلِ، والغير مَفْقُود، مُسَمَّى بالأسْمَاءِ، مَوْصُوفاً بالصفات، واحدُ الوُجُود، ولما أَحَبَّ أَنْ يُعْرفَ جلَّ عُلاَه، من الكَنْز المخفي(٢)، والغيْبِ المؤدُود، حَصَل التَّدَلّي والتَّجَلّي في المراتب القديمة، وعنها ظهرَتْ الذاتُ المحمدية، والدرة اليتيمة، لسابِق وُعود، فكانَتْ حقيقةُ القلم الأعْلَى، والعقْلُ الأوّلُ، والنور البرزخي المحمودِ، ويشير إليه حديث **«أول مَا خَلَقَ الله نُور نبيكَ يَا جابِر»**(٣).

وهذا الشاهد المشهود: هو الدرة البيضاء، والقبة الخضراء، وقبضة النور المسعود، صلى الله تعالى عليه، وعلى آله وأصحابه، مطالع السعود، ومَعَارِج الصُّعود، وعلى التابعين لَهُم بإحسان، ما تحقق سَالك، ما به جُمود، ولا عَرَاهُ خُمود، في معنى «وَحْدَةِ الوُجود»(٤)، على ما هو المراد والمقصُود.

وبعد؛ فيقول العبد الفقير للمولى الغني الودود، مصطفى بن كمال الدين بن علي ـ سقاهم الله من الحوض المورود ـ سبط الحسنين الأحسنين الصديقي، منح مدداً للبر، يقود. قد ألف الأعيان من أهل العيان، قديماً وحديثاً، رسائل في معنى وحدة

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ: **«كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء..»** الحديث رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، حديث رقم (٣٠١٩) [٣/ ١١٦٦] ورواه البيهقي في سننه الكبرى، كتاب السِّيَر، حديث رقم (١٧٤٨٠) [٩/ ٢] ورواه غيرهما.

(٢) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حديث رقم (٢٠١٦) [٢/ ١٧٣].

(٣) أورده العجلوني في كشف الخفاء، حرف الهمزة مع الواو، حديث رقم (٨٢٧) [١/ ٣١١].

(٤) وحدة الوجود: يعني به عدم انقسامه إلى الواجب والممكن، وذلك أن الوجود عند هذه الطائفة ليس ما يفهمه أرباب العلوم النظرية من المتكلمين والفلاسفة، فإن أكثرهم يعتقد أن الوجود عرض، بل الوجود الذي ظنوا عرضيته هو ما به تحقق حقيقة كل موجود، وذلك لا يصح أن يكون أمراً غير الحق عز شأنه.
وأيضاً، لما كان للذات الموصوفة بالوحدة اعتباران:
أحدهما: اعتبار واحديتها، وإحاطتها، وشمولها للأسماء والحقائق، وهي الحضرة التي تسمى مرتبة الجمع والوجود كما عرفت.
وثانيهما: اعتبار أنها هي عين تلك الحقائق التي اشتملت عليها وأحاطت بها لا غيرها، وكان الوجود أصل تلك الحقائق، وأظهرها حكماً للمدارك، فكان الوجود عين الذات بهذا. (لطائف الإعلام في إشارات أهل الإلهام بتحقيقنا).

الوجود، وأفصحوا عن المراد منها والمقصود، وحققوا أن العقول بها موافق لما عليه أهل السنة والجماعة القود، وجعلها البعض من العلم المضنون به، عن غير أهله، الباذلين في طَلَبِهِ المجهُود، وقال آخرون: هي من العِلْمِ الوَاجب بثّه، لمن يَطْلبُ قرباً أن يسود.

والأول: اختيار السلف كالحسن البصري، وأضرابه أهل العقود، وقَضِيته مع فرقد السبخي شائعة، مرفوعة البنود، وحديث أبي هريرة، وسلمان، وابن عباس، في كتب الحديث موجودة، وآية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨]، لكنها من أعظم الشواهد التي لا يجلها ذو رقود.

ولقد ظهر الآن من يدَّعي العرفان، وهو عَريٌّ عنه مبعود، إذ للمعرفة علامات، لا تخفى عند أهل بان زرود[١] المعرفة الخاصَّة ذات الوجه المُبرق، الملمع الرغود، إذا صاحبها كما قال [الشيخ عبد الوهاب] الشعراني في «الجوهر والدرر» الجامعُ لما يدق عن بُروق طبع الجلمود[٢]؛ وهو من لا يجهلُ حكماً واحداً من جميعِ صَريح شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسَّلام.

فمن ادعى مقام المعرفةِ، وهو جاهِلٌ بحكم من الأحكام في الشريعةِ المُحمديَّة أو غيرها!، أو استشكل آية أو حديثاً، أو قولاً مِّن أقوال المجتهدين أو غيرهم، فهو كذاب في دَعْواه المعرفة، ولا يصلح له أن يجلس لإرشاد السالِكِين، وهذا معنى قول بعضهم: ما اتَّخذَ الله وليّاً جاهلاً ولو اتخذهُ لعلَّمه.

ثم عُرِفَ العارِفُ، في لسان الصوفية: أنه من أُشعِرَ الهيبة نَفْسه، والسكينةَ قلبه، ولم يكن له علاقة صارفة عن الحقّ، وأطال بما لا يحوم حول حماه بطال، ثم إن هؤلاء المدعينَ بها، بغير شُهودٍ، يقررون كلام القوم، ومعنى «وحْدَة الوجُود»، على خلاف المقصود، فاستحقُّوا بذلك الوَبال والنَّكال، والنار ذات الوقود، وجعلوا لهم في ذلك مذهباً، غير نافذ بل مسدود، لمخالفة النصوص، والأحكام الظَّاهِرة والحُدود، فأورثهم الخروج عن دائرة الملة الحنفية السَّمْحة، ذات الأزهار والورود.

---

(١) البان: شجر يُستخرج من حب ثمره دهن طيب، وحبه نافع للبرش والنمش والكلف... إلخ (القاموس المحيط للفيروزأبادي). وزرود: بفتح أوله وبالدال المهملة في آخره: جبل رمل... وهو بين ديار بني عبس وديار يربوع (معجم ما استعجم للبكري) وفي لسان العرب لابن منظور: زرود موضع، وقيل: زرود اسم رمل مؤنث.

(٢) الجلمود: الصخر... أصغر من الجندل قدر ما يرمي بالقذاف. (لسان العرب).

وفي شأنهم وحالهم المكمود، المردود، ألفت رسالة «السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد»، وقد رأيتها مناماً في يد سيد العِبَاد، وسند العُبَّاد ـ الذي من حاد عن منهاجه فهو المطرود ـ وجنابه الشريف يتصفحها مبتسماً، وجنود البشر تمود، فعلمت أنها وقعت منه ﷺ، موقع القبول، ووضعها على وسادة لها ارتفاع وطول، فحمدت الله تعالى المعبود، ووضعت قبلها رسالة سميتها «تشييد المكانة لمن حفظ الأمانة»، مفصحة بصون الأسرار عن كل ذي عنود.

وتكرار على القلب الآن سنة ثلاث وخمسين ومئة وألف ـ وأتمها الله بخير وإحسان ـ وأنا نزيل القدس المصان، أن أضع رسالة، راجحة الميزان، كاشفة عن معنى «وحدة الوجود» للإخوان، مع إدماج فوائد حسان، منبهة لهم من غفلة الجنان، محذرة من الميل إلى زخارف أقوال الزنادقة الخوان، مسمياً لها «المَوْرد العَذب لِذِي الورود في كَشف مَعْنَى وحْدَةِ الوُجود»، والله أسأل، ونبيه أتوسل، أن يُلهمني القول الحق، المقبول عند الرسُول والحق، آمين.

[إنقسام الوجود إلى قديم وحادث]

اعلم أيُها الأخ الناهج نهج المصطفى، والساري سبيل الاقتفاء المقتفى، أن الوجود يطلق على الحادثِ والقديمِ، لكن الأوَّل لا قيام له من نفسِه، فهو كالعَدمِ، ولهذا قال أهل الشهود ـ المتمسكِينَ بالحبل المَمدودِ ـ الوجود الذي يصدق عليه اسم الوجود، واحد، وما قام به، واستمد منه، وفاض عنه، فهبائي، سلبي، خيالي، مجازي، نسبي، إذ هو مسبوق بعدمٍ، ولاحق بِهِ، وكل وجودٍ بَيْنَ عدمين، حَادِث، فانٍ، فانْتَبِه.

وحيث كان الوُجُود للّهِ، ووجود الأشياء قَائم بِهِ، مَوْجُود بإيجاده، بَاقٍ ببقائه، فالوجود على الحقيقة له، لا لغيره، إذ هو ـ أي الحادث ـ هالك بالنظر لوجوده، ثابت الوجود بالنظر لموجوده، فبهذا الاعتبار، غارت عيون الأغيار:

ـ ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، لا يقصد أحد سواه.

ـ ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ليس له غير؛ خفي ولا بائن.

ـ ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، فلا أول إلا به، ولا آخر، ولا ظاهر، ولا باطن.

بوجوده ـ أي الله ـ قام الوُجودُ، وبدوام شُهُوده، ارتقى أهل الشهود، إذ هو قيُوم السموات والأرض، وقيام الكل به على التحقيق، لا التقدير والفرض، فيضُ

وجودِه متجدِّد على الدوام، ولولاه لانعدم العَالَم، واختلَّ النظامُ، ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]، وأمره الواحد لا نهاية له، ولا تحديد..، إذ كُشِفَ الحِجَابُ، يقول المكاشف: لا غير، وإذ ستر: فكل غير، لثبوت الغير، فإثبات العينية، وفي الغيرية، بحسب الوجود، ومحو القيود حالة الشهود.

وانظر قول سيدي هارون عليه الصلاة والسلام، للأكبري[١] المعدود في كمل الأمة بغير جحود، الذي ذكرهُ في الباب تسعة وستين وثلاثمائة، فإنه قال فيه: اجتمعت روحي بهارون عليه الصلاة والسلام في بعض الوقائع، فقلت له: يا نبيَّ الله كيف قلت: ولا تشمت بي الأعداء؟ ومَن الأعداء حتى تشهدهم، والواحد منا يصل إلى مقام لم يشهد فيه إلا الله، فقال السيد هارون: صحيح ما قلت في مشهدِكم، ولكن إذا لم يشهد أحدكُم إلا الله، فهل زال العالم في نفس الأمر، كما هو مشهدكم، أم العَالم باقٍ، وَحُجبتُم أنتم عن شُهودِه، لعظيم ما يتجلى لقلوبكُم؟ فقلت له: بل العالم باقٍ في نفس الأمرِ، لم يزلْ، وإنما حُجِبْنا عن شُهُودِهِ، فقال: قد نقص علمكم بالله في ذلك المشهد، بقدر ما نقص في شهودكم العالم، فإنه كله آيات الله، فأفادني عليه الصلاة والسلام علماً لم يكن عندي، انتهى.

[الوصلة والوصول]

وقال في فتوحاته في الباب الستين وخمسمائة: أصدق بيت قالته العرب: ألا كل شيء ما خلا الله باطل[٢]، اعلم أن الموجودات وإن وصفت بالباطل، فهي حق من حيث الوجود، ولكن سلطان المقام إذا غلب على صاحبه، يَرى، مَا سِوى الله باطلاً، من حيث إنه ليس له وجود من ذاتِهِ، فحكمه حُكم العَدَم، قال: وهذا من بعض الوجوه، التي يمتاز الحق بها، من كونه موجوداً عن وجود خلقه، مع أنه على الحقيقة ليس بينه وبين خلقه اشتراك، بوجه من الوجوه.

---

(١) يقصد الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الحاتمي الطائي المولود سنة ٥٦٠ هجرية والمتوفى سنة ٦٣٨ هجرية، من أشهر مؤلفاته موسوعة الفتوحات المكية، وفصوص الحكم، وترجمان الأشواق.

(٢) يشير إلى قوله ﷺ: «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد:

ألا كـل شـيء مـا خـلا الله بـاطـل

وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم» رواه البخاري في صحيحه في بابين أحدهما: باب أيام الجاهلية، حديث رقم (٣٦٢٧) [٣/ ١٣٩٥] ومسلم في صحيحه، كتاب الشعر، حديث رقم (٢٢٥٦) [٤/ ١٧٦٨] ورواه غيرهما.

وقال في باب الوصايا: احذر أن تَدّعي الوَصلة، وجمع الشّمل، فإني أخافُ عليك، أن يكون جمعك بك، لا به، فتكون في عين الفصل والفراق، فلا تغالِط نفسك، قال: علامة صحة الوصلة بمشاهدة الحق، أنك إذا عكست مرآة قلبكَ إلى الكون، عرفت ما في ضمائر الكون، ويصدقك الناس على ذلك الكشف، انتهى.

واعلم أن أهل البَاطِنِ، لما عَمَّروا القلب بالحضُور مع الحقّ، في سائر المواطن، ووفتهم، الجذبات الحقية، والنفحات الربية، استخلصتهم من قيد السوى، وحررتهم من رق الهوى، فخلصوا من الِشرك الخفي، وأطلقوا من سجن الغفلات، التي سراج مصباحها طفى، فغلب على باطنهم التصفية من الأكدارِ، لمعَان أنوار، رفعت لهم السُجف والأستار، فهانت الصعابُ، ودانت العقابُ، وحين تخلّوا عن الشوائب، تحلُّوا بغرائب الأطَايب، ومتى تخلى القلب وتحلّى، مولاه تولاّه، عليه تَجَلّى، وهناك لا يرون إلا الوجود الحق، والشهود الصدق، فينفون الخلقية بالكلية، لتوارد أحوال قلبية، وهذا من سكر الحال، وقهر الواردات للمحال، وينشأ عن استغراق مطول في مقام الجمع الأول، فيقول الغائِبُ بسكرهِ، عن عقلهِ وفهمِه وفكرِه:

- أنا مَنْ أهوى ومَنْ أهوى أنا[1].

- ما في الجبة إلا الله[2].

ولا يقُول إذ يقُول، إلا من حيث الوُجود، الذي قام به كل مَوْجُودٍ ومنقُود، وإذَا صحا، رَجَع لشهود الفرق الثاني.

وعلى هذَا المعول عند أهل التّداني، وهو حَقّ وخلق في آن، فلا يحجبهُ شهود أحدهما عن الآخر، وهذا مقام الإحسان، ومقام الخلفاء أصحاب الاقتفَاء والاصطفاء، فإن الأول يقول ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله، إذ الأذواق لا نهاية لها، كالسير

---

(١) صدر بيت من خمسة أبيات للشيخ الحسين بن منصور الحلاج المتوفى سنة ٣٠٩ هجرية، وهذه الأبيات هي:

أنا مَن أهوى ومَن أهوى أنا	نحن روحان حللنا بدنا
نحن مُذ كنا على عهد الهوى	يُضرَب الأمثالُ للناس بنا
فإذا أبصرتني أبصرته	وإذا أبصرته أبصرتنا
أيها السائل عن قصتنا	لو ترانا لم تُفرّق بيننا
روحه روحي وروحي روحه	من رأى روحين حَلّت بدنا

(ديوان الحلاج ومعه أخبار الطواسين، ص(١٥٨ ـ ١٥٩) دار الكتب العلمية ـ بيروت).

(٢) ينسب هذا القول للشيخ الحسين بن منصور الحلاج (انظر المرجع السابق).

الأخروي، فلا يكن ممن عنه النهى، فصاحِبُ الجَمع ذو عَيْنٍ، والفرق الثاني ذو عينين، والكامِلُ الرباني ذو عُيون، لأنه ذاق الجنُونَ والفنُونَ والسُّكونَ، ورأى ربهُ بعينٍ، ونفسه بعينٍ، ودنياه بعينٍ، وأخراه بعينٍ، وخاطب كل واحدٍ بما يليقُ، فأدّى المواطن حقها عن تحقيقٍ، وخلص من حبائل التعويق، فما خَلَطَ بين الرقائق، بل ميز بين الغث من السمين، وفرق بين السَّلْسَبيل والماء المهين، ولا ركب متن عَمْيَاء، ولا خبط عشْوَاء، بل حلب ضِرْعَ الأسرار بالساعد الأسَد، ولم يؤخر عمل اليوم لغد، للرأي الأسدِ.

فالصَاحي المؤيد كشفه بالنقولِ، مقبُول المقُول، والسَّكران يسلم له حاله ولا تقتدي به لعزم محلول، وهذا كمجانين أهل الله الفحول؛ أهل الجذب والغيبة والذهول.

[دَعْوَى الذّوق والمعرفة]

وأما الواعي المتساكر، ذو الحال الأفحم العاكر، فلا يلتفت إليه، ولا يعولُ عليه، فيه الأخبار الذوقية، لأنه يَدَّعي الذوقَ، وهو عنه أجنبي، فمن قبل منهُ، دلَّ على أنه جَهُول غبي، فإن من يَدَّعِي، عند أهل الله، يَدَّعِي، لا يُصْغَى لحديثِهِ، ولو أسند وعنعَن، بل يُلغى، لأنه بالمفتريات دَنْدَنَ.

وإذا كان السَّكْرَان المحقُّ في سكرِهِ، لا يحتجُّ بكلامهِ كالحلاَّج، فكيف بالمتساكِرِ، الناهج في الليل الدَّاج!، قال الأكبري، قال الحلاج، وإن لم يكن من أهل الاحتجاج: بسم الله من العارف، بمنزلة كن من الله. وقال في محل آخر، بعدما أثبت سكره بيقين: فالحلاج سعيد، وإن شقي به آخرون، أي بالسكر، فإنه نهج غير مستبين.

واعلم أن الظاهرين الآن، من أهل دعوى العرفَان، الزاعمين، أن وجودهم الحادِث المقدَّر المفرُوض، هو بعينه وجود الحق القديم، وذواتهم الحادثة العديمة، عين الذات العلية القديمة، ويثبتون لصفاتهم ذلك، وقصدهم إسقاط الأحكام، وإزالة التكاليف، وهذا مما يوجب الخروج عن ربقةِ الدين، الشرع الشريف، فهؤلاء ملاحدة فجرة، أرباب وجوه عليها غبرة، ترهقها قترة[1]، ضلوا وأضلوا، لأن إنكار الخليقة فيه معارضة للنصوصِ الحقية، ورفع للشرائع الإلهية، وإنكار الأمور الأخرويّة.

---

(١) القترة: ما يغشى الوجه من غبرة الموت والكرب (العين للفراهيدي).

وهذا مما لا يقوله من يجهله مكلم، فضلاً عن عالم، عارف، مكلم، فقتل واحد من هؤلاء الفجار، كما قال الغزالي[١] ـ حاوي الفخار ـ أفضل عند الله تعالى من قتل مئة كافر ذي إنكار، لأن هذا يغر بزخارف أقواله، ضعفاء العقول، ويوقعهم في المهمة المردي، نازلة المهول، وهو رفض الشريعة المطهرة، ذات السيف المصقول، حتى أن هؤلاء الأوغاد بالارتياب، يدعون أن الشرع الشريف، كلف به أهل الحجاب، وأن الشرع لأجلهم، اقتحم في عبوديته الأتعاب، لا قياماً بحق العبودية المحضة، لِرَبِّ الأَرْبَاب.

فالله، الله، أيها الأخ، في اجتناب هؤلاء كل الاجتناب، واحذر أن يجمعك بهم منزل، أو تحل معهم في رحاب، فإنهم كما قال الإمام الجيلي[٢] المهاب، يفسرون الأحاديث النبوية، وآيات الكتاب، بما [لا] يرضى به من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، واتباع لسيد الأحباب، ويخوضون بحور عماية وجهالة، لقلة الأدب، وربما تصدر منهم عبارات لا تليق نسبتها بالجناب المقدس الأعتاب، فمخالطتهم توقع في ارتباك، وارتكاب ما يغلظ الحجاب، ويلفظ عن الباب، إلا من تَابَ، وَرَجع، وأَنَاب، فإنه يرجى له حسن المتَاب من التوَّاب.

فانهج، مَنْهَج الإقلاع عن صحبتهم، واحْذَر عنها المدرج في الإنسان، وإن لم تفعل، فما نصحت نَفْسَك، فَتَأَهَّب لِجَوَاب يوم الحِسَاب، فإنه لا بد من الوقوف في صُفوفِ أرباب اليَقِين والارتِيَاب، والسؤال عن الفتيلِ والقطمير[٣]، لدى إسدال الحجاب، فمن سلم أدخل جنة شامخة الأَطْبَاب[٤]، وإلا فالنار لمن حُقَّتْ عليه كلمةُ العذَاب.

نسأل الله السلامة، من شر العقاب والعذاب، واعمل بما صرحت به في «ألفية التصوف»، راجٍ بالنصيحة الثواب:

(ومن غدا مسلوب الاختيار فحكمه تسليمه للباري

---

(١) حجة الإسلام الشيخ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، ولد سنة ٥٤٠ هجرية وتوفي سنة ٥٠٥ هجرية، من أشهر مؤلفاته (إحياء علوم الدين). (انظر معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة [٢٦٦/١١]).

(٢) هو الشيخ عبد الكريم الجيلي المولود سنة ٧٦٧هـ والمتوفى سنة ٨٢٦ هجرية. من أشهر مؤلفاته (الإنسان الكامل في معرفة الأوائل والأواخر) بتحقيقنا.

(٣) القطمير: الفوقة التي في النواة، وهي القشرة الرقيقة، ويقال: هي النكتة البيضاء التي في ظهر النواة تنبت منها النخلة. (الصحاح للجواهري).

(٤) كذا بالأصل ولم يظهر لي المعنى.

لا تـعـتـرض فـي فـعـلـه عـلـيـه إذ عَـقـلُـهُ خَـبَّـأه لـديـه
وإنـمـا يـعـتـرض الـبـاقـي عـلـى عـقـل لـه وشـرع طـه قـد قَـلاَ
يـقـول ذا حـقـيـقـة ذريـعـة كـي ينبذنَّ جانـب الـشـريـعـة
فـاحـذر عـلـى ديـنـك مـن ذي الـقـوم ولا تـجـالـسـهـم ولـو فـي الـنـوم
وقـد نـمـا فـي ذا الـزمـان شـرهـم حتى سَما في الناس جداً ضرهم
ولـم يـكـن لـهـم هـنـا مـن يـردع من أجل ذا الـديـن الـحـنـيـفـي ودعـوا
وعـنـدنـا فـي الـشـام مـنـهـم نـفـر قـلـوب أهـل الـحـق عـنـهـم نـفـروا
طـالـع سـيـوفـنـا الـحـداد فـيـهـم كـي تـمـسـي مـمـن ربـهـم يـهـديـهـم)

[تأويل شطحات العارفين]

ولسنا مأمورين باتباع زيد وعمرو، ولو أنهما من الأنجاب، وإنما أمرنا أن نتبع ما جَاءنَا به الرسول عن التوَّاب، وإذا رأينا من خالف حُكماً من الأحكام، نرده عليهِ، ولا نرتاب، ولو أنه قُطب إقليم أو غوث أحقاب، فإن الكتاب ناطق بالحقِّ، مُرشد صَوْب الصَّوَابِ.

وإذا رأينا في عبارة أحد من الأعلام موهماً، أوّلناه للطلابِ، كقولِ حجة الإسلام: ليس في الإمكان أبدع مما كان، فقد أوّلها الخوَّاص[1] المجاب، بأن ثمة إلا رتبة، قدم وحدوث؛ فالقدم لله والحدوث لغيره، فلو وجد ما وجد لا يخرج عن هذه.

وأولَّ قول أبي الغيث بن جميل[2]: خضت بحراً وقف الأنبياء بساحلِه، فقال: هو بحر السكر، ووقف الأنبياء بسَاحلِهِ الثاني، ينقذون الغرقى منهُ.

وقد تصدى لتأويل ما أشكل من كلمات العارفين كثيرٌ من أهل الله تعالى، كالإمام الشعراني وغيره، والذي يجب علينا أن نعتقده، في خواص المقربين، أنهم لا يخرجون عن موافقة الشرع الشريف قدماً، لأنهم النواب والأمناء، والخدمة والسدنة لبابها، والحكماء، فأحسن الظن بهم، أيها الأخ، وأوّل مشكل كلامهم، تفز بالبر الجسيم، من الرحيم، لأنه أعلم بمرامهم.

---

(١) الخواص: هو الشيخ علي الخواص، كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ، أستاذ الشيخ عبد الوهاب الشعراني، كانت حرفته ضفر الخوص (الموسوعة الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفني، ترجمة رقم ١١٧ ص١٩١).

(٢) هو الشيخ أبو الغيث بن جميل تحول من قاطع طريق إلى صوفي بعد سماعه هاتف خفي، روي عنه كرامات كثيرة، توفي سنة ٦٥١ هجرية. (الصوفية والفقهاء في اليمن).

قال الإمام النَّووي[1] قدس الله سره السوي، ما معناه: ينبغي للرجل إذا رأى في كلام أخيه مشكلاً، أن يطرقه سبعين احتمالاً، ثم يرجع على نفسه بالملامة، ويقول لها: قد احتمل كلام أخيك كذا وكذا من الاحتمالات، ولم يقنعك، انتهى، ومتى علمنا من إنسان حسن العقيدة وَجَبَ علينا أن نحمِلَ أقوالَهُ الموهمة على المحامل السَّدِيدَة...

[التمسك بالشريعة والعمل بميزانها]:

وقد ذكر الشيخ الأكبر عقيدته، أول فتوحاته، ليرد الواقف عليها، ما أشكل من كلماته، ومن أحسن قوله:

سائلي عن عقيدتي ... أحسن الله ظنه
علم الله أنها ... شهد الله أنه

وأنشد، محرضاً على اتباع الشريعة:

(ما نال من جعل الشريعة جانباً ... شيئاً ولو بلغ السماء مناره
لا تقتدِ بالذي زالت شريعته ... عنه ولو جاء بالأنباء من الله)

وقال في الباب الثامن والعشرين بعد المائة: اعلم أن رضا الله عن العبد يكون بحسب مشيه على الشرع، كثرة وقلة، فمن أَخَلَّ بالعمل في شيء منها، نقص من الرضا بِقَدْر مَا أخل، وهذا ميزان في غاية الوُضوح، والإنسان على نَفْسِهِ بَصير.

وقال في الباب التاسع والعشرين بعد المائة: يجب على العبد الرضا بقضاء الله، لا بكل مقضي، فلا ينبغي الرضا بالمعاصي، ولو رأيت وجه الحكمة فيها، فإنك إذا كنت صحيح الرؤية والكشف ترى الله تعالى غير راض عنك في فعلها، وإن لم تره فارجع إلى حكم الشرع، ولا يرضى الله لِعِبَادِهِ الكفْرَ.

قال الشعراني رضي الله عنه في «الكبريت الأحمر في علوم الشيخ الأكبر» بعدما نقل العبارة، قلت: وأكثر من يقع في الرضا بالمعاصي، أصْحَاب حضرة التوحيدِ العَام إذا لهم شَيْخ، ويظنونَ بنفُوسِهِم أنهم خُوطبُوا بأمْرِ من الله، خلاف ما جاءت به الشريعة، وهذا كفر وتلبيس، فإن الحق تعالى، ما ينهى عن شيء على لسان رسُلِه، ويبيحه من ورائهم لأحد من أممهم، أبداً، فافهم.

---

(١) هو الشيخ أبو زكريا محيي الدين بن شرف النووي الدمشقي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ، من أشهر مؤلفاته شرح صحيح مسلم (معجم المؤلفين [١٣/ ٢٠٢]).

وقال في الباب السادس والأربعين ومائة: إياك أن ترمي ميزان الشَّرع من يدك في العالم الرسمي، بل بادر لما حكم به، وإن فهمت منه خلاف ما يفهم الناس، مما يحول بينك وبين إمضاء ظاهر الحكم به، فلا تعول عليه، فإنه أمْر نفسانِي [مكر نفسي]، في صورة علم إلهي من حيثُ لا تشعُر.

قال: وقد وقعنا بقوم صادقين من أهل الله، ممن التبس عليهم المقامُ، ورجحوا كشفهم، وما ظهرَ من فَهمِهِم، مما يبطِل ذلك، وَهُم مخطئونَ في ذلك.

قال: واعلم أن تقديم الكشف على النص ليس عندنا بشيء، ولا عند أهل الله تعالى، وكل من عوَّل عليه، فقد غلط، وخرج عن الانتظام في شرع أهْل الله تعالى ولحق بالأخسرين أعْمَالاً، وأطال في ذلك.

ثم قال: وإذا ورد على أحد من أهل الكشف، وارد إلهي، يحل له ما ثبت تحريمه في نفس الأمر من الشرع المحمدي، وجب عليه جزماً ترك هذا الوارد، لأنه تلبيس، ووجب عليه الرجوع إلى حكم الشرع الثابت، وقد ثبت عند أهل الكشف بأجمعهم، أنه لا تحليل، ولا تحريم، بعد انقطاع الرسالة، وأطَال في ذلك.

ثم قال: فتفطَّنوا يا إخواننا وتحفظوا، من غوائل هذا الكشف، فقد نصحتكم، ووفيت الأمر الواجب علي في النصح، والله أعلم.

وقال فيها، في الباب السابع والستين وثلاثمائة: ليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع ﷺ.

وقال عند الكلام على الأذان وأسراره: واعلم أني لم أقرر في كتابي هذا قط أمراً غير مشروع، وما خرجت عن الكتاب والسنة في شيء منه.

[العلم اللدني]

وقال في الباب الخامس والستين وثلاثمائة: واعلم أن جميع ما أتكلم به في مجالسي وتصانيفي، إنما هو من حضرة القرآن وخزائنه، فإني أعْطيت مفاتيح الفهم فيه، والاستمداد منه، كل ذلك حتى لا أخرج عن مجالسة الحق تعالى، ومناجاته بكلامه.

وقال في الباب الثالث والسبعين وثلاثمائة: جميع ما كتبته، وما أكتُبه في هذا الكتاب، إنما هو عن إملاء إلهي، وإلقاء ربَّانِي، ونفث رُوحَاني في روح كياني، كل ذلك بحكم الإرث للأنبياء، والتبعية لهم، لا بحكم الاستقلال، انتهى..

ولو سردت عليك أيها الأخ، جملة ما حرض عليه الشيخ في اتباع الشَّريعة في فتوحاته وغيرها، لرأيت العجب العجاب، من اتباع دون ابتداع، وكمال أدب، وقد

أطبق العارفون على ذلك، بلا خلاف منهم، فيما هنالك، فإن كنت من أهل الاقتفاء، فهذه الآثار، وإن كنت من يرغب في خطاب الاصطفاء، فهذه الأنوَار.

[نصائح ووصايا]

وإياك، ثم وإياك، أيها الأخ، أن تميل مع كل ميّال مهدار، أعذر من عذير، لا يعد في العير ولا النفير، هز أهتار، وكن ثبت الجنَان والأقدام، راسخ الأركان حال الإقدام، ولا تظن أن كُلَّ من حَفِظَ كَلمَات العَارِفين، وكررها في مَجَالِسِه للعَارفين، من أهْلِ الوجْدَان والذَوْق، والفتح والمنح، فإنه خارج عن الطَوق، ولا سِيمَا من يدْعوك إلى مَا لا سَلف لهُ فيه، إلا أفهام أردية، وَتَشَدق فيها بغية.

واتبع السواد الأعظم وما عليه الجمهور الأفخم، فإن يد الله مع الجماعة، ولن تجتمع الأمة على ضلالة، لها بشاعة، إكراماً لمن جاءها بالرسالة، وإعظاماً لمن أنقذها من الجهالة، ولا تلتفتْ لكل صائح، ولا تتبع السُّبُلَ، فإنها محشوة بالفضائح، ولا تعر سمعك لكل مُدّع، أنه نابل، لم يلقَ عند الطعن من مقابل، بل استمسك بالعروة الوثقى، والحبل المتين الأرفع الأبقى، فإن الباطل لا يبقى، والحق يعلُو، ويغلُو، ويرْقَى.

واستظلَّ بحمى الشريعة، التي هي الأصْلُ الأصِيل، والحَظ الطريقة، فإنها من دواعِي التّكْميل، وغص بحر أسرارِها، المعبر عنه بالحقيقة، بباعٍ طويلٍ، فإذا ظفرت بما أشرت لك به، كنت صاحب تنويل، وعرفت بإمداد الجَليلِ الجَميل، أن الكل شرع الوكيل الكفيل، فعانقت الآداب، ولزمت الباب، وَمَا زغت بِزُخْرف الأبَاطِيل، وجديت في العَمَلِ، وما توانيت إلى زَمَنِ الرَّحيل. ومن كلام السيار الأكبر الطيار، لمنازل التحصيل، لو قرض جسم العارف بالمقاريض، على أن يترك أدباً من آداب الشريعة، ما فعل، أو ما معناه فانتبه، أيها النبيل.

وقال في الباب الذي جمع فيه لباب الوصايا من كتاب فتحه المكي [الفتوحات المكية]، مبرء العليل: عليك بعلم الشريعة، فإن الشريعة هي سفينتك، التي إذا تَخرَّقَت، هلكت، وهلك جميع من فيها، وأنت مسؤول عن إقامة حدود الله، في رعايتك الخارجة عنك، والداخلة فيك، ولا تعرف إقامة الحدود إلا بمعرفة شرع ربك.

[ملازمة تلاوة القرآن الكريم]

وقال الشيخ الأكبر في الباب الذي قبله، مجالسة الرسل بالاتباع، ومجالسة الحق بالإصغاء إلى ما يقول: فَكُن سَامعاً لا متكلماً، قال الشعراني في [كتاب] «الكبريت الأحمر» بعدما نقل هذه العبارة: وقد منَّ الله عليّ في هذا المقام، بلذّة لا

يقدر قدرها، حين أكون سامعاً، وأما إذا كنت أنا التالي، فلا أجد تلك اللذة، وما ثمة عندي الآن نعيم قط في دار الدنيا، ألذ من سَمَاعِ القرآن، والحمد لله رب العالمين.

وقال في باب الوصايا: عليك بتلاوةِ القرآن، ولو ثلاثة أحزابٍ كل يَوْم، ولا تهجره كما يفعل ذلك طلبة العلم، وبعض المتصوفة، زاعمين أنهم قد اشتغلوا بما هو أهم من ذلك، وهو كذب وزور، فإن القرآن مادة كل علم من الدنيا، فلا تكن ممن يهجر تلاوته، بل اتله إن استطعت، آناء الليل، وأطراف النهار، واستنبط منه ما شئت من العلوم، كما كان الأئمةُ المجتهدون.

وانظر في تلاوتِكَ، يا أخي، إلى كُل صفة مدَحَ الله بهَا عباده، فَافعلها أو اعزم على فعْلهَا، وكل صفة ذمّ الله تعالى عباده على فعلها، فاتركها أو اعزم على تركِهَا، فإن الله تعالى ما ذكر لك ذلك، وأنزله في كتابه إلا لتعمل به، فإذا حفظت القرآن عن تَضْييع العمل به كما حفظته تلاوةً، فأنت الرَّجلُ الكَامِل.

[تقييد الحقيقة بالشريعة]

وقال في الباب قبله: «الشريعة لب العقل، والحقيقة لب الشريعة، فهي كالدهن في اللب، الذي يحفظه القشر، فاللب يحفظ الدهن والقشر يحفظ اللب، كذلك العقل يحفظ الشريعة، والشريعة تحفظ الحقيقة، فمن ادعى شرعاً بغير عقل، لم يصح دعواه» ومن ادعى الحقيقة بغير شرع لا يقبل.

واستدل عليه بقول الجنيد[1]: «علمنا هذا يعني الحقائق التي يجيء بها أهل الله مقيدة بالكتاب والسنة، أي إنها لا تحصل إلا لمن عمل بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ وتلك هي الشريعة».

وقال الرسول ﷺ: «**إن الله أدبني فأحسن أدبي**»، «**وما هو إلا ما شرع له، فمن تشرع تأدب، ومن تأدب وصل**»، انتهى ملخصنا من الباب الحاوي على العجبِ العُجَاب.

[هدر دم الصوفي المخالف للشريعة]

واعلم أن جميع أهل ممن يصطفيهم، أطبقوا عن بكرة أبيهم، أن المخالف للشريعة المحمديَّةِ، مهْدُور الدم، يقتل في الحلِّ والحرم، ولو أنه مشى على الماء،

---

(١) الجنيد: هو أبو القاسم الجنيد بن محمد الجنيد إمام الطائفتين أهل الشريعة وأهل الحقيقة، أول من تكلم في علم التوحيد ببغداد، توفي سنة ٢٩٧ هجرية (الموسوعة الصوفية للدكتور عبد المنعم الحفني ترجمة رقم ٨٩ [ص١٣٠]).

أو تربع في الهواء، فهو ممكور به، ليس له غير السيف دماء، وقد ردّ عليهم شيخنا الهمام المرحوم الشيخ عبد الغني المقدام، في محلاتٍ عديدةٍ من مؤلفاته المفيدة، وأفتى بقتل جماعة ممن ينتمون إليهم، منهم «ابن الصَّارم»، فقال في أبيات آخرها ما معناه: إن يكن ما تاب جهلاً فاقتلوه في أبيهِ.

[الاقتداء بالشيوخ المحققين]

ولم نرَ فيمن اجتمعنا به، من الأشْيَاخ المحققين الصالحينَ، من خالف ظاهر الشرع، حيناً من الأحايين، لأنهم أربابُ تمكين، وأصحاب دعوة وإرشاد للمنهج المبين، فإذا أردت النجاة يوم الدين، فبهؤلاء اقتد، تكن من المفلحين، لا ممن غلب عليه حالُه[1]، وقهره جماله[2] أو جلاله[2]، فإن الشطح[3] رعونة في النفس، ونفس صاحبه تحت أسره مرهونة، فاقتفِ أثر أهل الذوق[4] والشرب[5]، بل أهل الري[6] والرُسُوخ، لا أهل الاستطعام، فربما كان حكم ما رأوه منسوخاً، ورأسه مرضُوخاً.

---

(١) الحال: هو ما يرد على القلب من غير تأمُل ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو غم أو فرح أو قبض أو بسط أو شوق أو ذوق أو انزعاجْ أو هيبة أو أنس أو غير ذلك، وإن الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببَذْل المجهود. وقيل: الحال تغير الأوصاف على العبد... فحاصل تسمية الحال حالاً، إنما هو لتحوله، وزواله. وسمي المقام مقاماً لإقامته واستقراره. (اللطائف الإلهية بتأليفنا).

(٢) الجمال والجلال: قال الشيخ في كتابه المسمى بكتاب (الجلال والجمال): «اعلم أن الجلال والجمال مما اعتنى بهما المحققون العالمون بالله من أهل التصوف، وكل واحد نطق فيهما بما يرجع إلى حاله، فإن أكثرهم جعلوا الأنس بالجمال مربوطاً، والهيبة بالجلال منوطاً، وليس الأمر كما قالوه. وهو أيضاً كما قالوه بوجه ما، وذلك أن الجلال والجمال وصفان لله تعالى، والهيبة والأنس وصفان للإنسان، فإذا شاهدت حقائق العارفين الجلال هابته وانقبضت، وإذا شاهدت الجمال أنست وانبسطت، فجعلوا الجلال للقهر، والجمال للرحمة، وحكموا في ذلك بما وجدوه في أنفسهم». (لطائف الإعلام بإشارات أهل الإلهام للشيخ عبد الرزاق القاشاني) بتحقيقنا.

(٣) الشطح: عبارة عن كلمة عليها رائحة رعونة ودعوى وهي نادرة أن توجد من المحققين. (اصطلاحات صوفية ورشح الزلال في شرح الألفاظ المتداولة بين أرباب الأذواق للشيخ عبد الرزاق القاشاني بتحقيقنا).

(٤) أول مبادىء التجليات الإلهية (المرجع السابق).

(٥) الشرب: أوسط التجليات الإلهية (المرجع السابق).

(٦) الري: غايات التجلي في كل مقام.

ولا تقنع بمن تقتدي به، بمجرد القيل والقال، فإنه لا يكفي إلا إذا، صحبه الحال، الكَشْف[١]، والعَيَان[٢]، والفتح[٣]، واللمح، والإيقَان شَاهِده.

أدعو إلى الله على بصيرة، أنا ومن اتبعني، أما من استغرقه قاهر الحال، وباهر وارد[٤] الجمال والجلال، حتى غلبه الشهود، وهيّمه صادر الوجود، فعاد غائباً عن الأكوان بتجليات الإحسان، لا يرى للحضور مع النور، إلا الرحيم الرحمٰن، مصرحاً: بالأنا والهو إليه، ولا يعول في الاهتداءِ عليه.

وكذلك الأنانيَّات[٥] الموهمة الوَصْل والاتّحَاد، فلم يتمسك بها إلا ذُو إلحاد، لأن ظاهرها غير مراد، وإنما ضيق العبارة الموهم أفاد، ومتى رجع هذا المستغرق لصحوه، ألزم بقضاء الفوائتِ التي فاتتهُ في مَحْوِهِ.

[الفناء]

وعلامة النشْوَان، نادِيَ الحب حيْرَان، وأدى القُرب ولهان، أفنانُ الشرب منهان، أدنان القرب، القُرب، أن يغيب عن الأنيس والجليس، والزمانِ والمكانِ، بل

---

(١) الكشف: الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً وشهوداً.
قلت (المحقق): والكشف أنواع: كشف في عالم الملك: أي شهود حقائق المحسوسات أو شهود أنوار تجليات الأفعال. وكشف في عالم الملكوت: شهود عالم المعاني، أو نقول: شهود أنوار تجليات الأسماء والصفات، وكشف في الجبروت أي شهود أنوار تجليات الذات.

(٢) والعيان: قلت (المحقق): من العين، أي الشهود بالعين بعد انطواء بصرها ببصر البصيرة، ويعبر به عن شهود تجليات الحق تعالى في أفعاله وأسمائه وصفاته وذاته.

(٣) الفتح: الفتوح: كل ما يفتح على العبد من الله تعالى بعدما كان مغلقاً عليه من النعم الظاهرة والباطنة، كالأرزاق والعبادة والعلوم والمعارف والمكاشفات وغير ذلك.
الفتح القريب: هو ما انفتح على العبد من مقام القلب وظهور صفاته وكمالاته عند قطع منازل النفس، وهو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ج ح خ د ذ﴾ [الصف: ١٣].
الفتح المبين: هو ما افتتح على العبد من مقام الولاية، وتجليات أنوار الأسماء الإلهية المعينة لصفات القلب وكمالاته.
الفتح المطلق: هو على الفتوحات وإكمالها، وهو ما انفتح على العبد من الفرق بين الكمال والشرف. والنقص والخشية: هو أن الكمال عبارة عن حصول تجلي الذات الأحدية، والاستغراق في عين الجمع بفناء الرسوم الخلقية كلها. (إصطلاحات صوفية للقاشاني بتحقيقنا).

(٤) الوارد: قلت (المحقق): الوارد ما يرد على القلب من العلوم الربانية وأنوار التجليات الإلهية.

(٥) الأنانية: قلت (الحقق): قول: أنا وهي حقية كقوله تعالى: «إني أنا الله لا إله إلا أنا»، وخلقية كقول إبليس: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢].

عن نفسه بحروف وصل نَفِيس، مجْهُور غير هَميسْ، مَتْلُو، غير طميسْ، منهوب القَرارِ، مسلوب الاختيارِ، لم يفرق بين السماء والأرض، ولا يدْري الطُول من العمق والعرض، فمثل هذا المطروب يسامح لغيبه، في شق الجيوب.

وأما المتشبه به اليقظ المتنبه، الحاضر مع كونه وأغياره، العارف بنفسه في سائر أطواره، فهذا لا يسامح إذا سكر، وعربد في الكلام، لأنه غير محق في دعواه، خائض يم الآثار، ومثل هذا يصفع قفاه، ويلام، ويضرب، إن لم يرجع بباتر الحسام، فإن الأحكام الإلهية الشرعية تجري على أعناق البرية، ولقيمها الأجر التام، والثواب الجزيل من الجميل، والسلام.

ونسأل الله تعالى أن يؤيد علماء الشريعة الأعلام، ليقمعوا أهل الزيغ والإجرام من الزنادقة اللئام، إذ بأيديهم السيف الظاهر، وقد أمروا، أن يحكموا بالظَّاهِر، والله يتولَّى السَرَائِر.

[علوم الحقيقة تدق على العقل]

واعلم، أن معارف القوم العالية، ومطارف أهل السوم الغالية، ورموزهم الدقيقة الملمحة بعلوم الحقيقة، تدق على العقول السليمة، وتخفى على الأفكار السقيمة، لأنها من العلم اللدُنِّي، الممنوح بالفيض الإلهي، لا التَعنيّ، ولا يدرك ذوقهم فيه إلا بجذبات للعبد توافيه، ويحتاج صاحب هذا المنهاج إلى نور كشف عَليّ - لا ضياء نجم، ولا سراج - ورشف جليّ يغني الساري عن الإبلاج، ويرفعه منصات القرب، على أقوام، أدْرَاج.

وكلما تملأ مقاماً، صاحب هذا السير، عزت علومه، ودقت فهومه على الغير إذا الكمل من أهله يتلقون علومهم عن المجيد، بواسطة الأحد الوحيد، ومشاهد، قول أبي يزيد: «أخذتم علمكم عن مَيت، وأخذنا علمنا عن الحيّ الذي لا يمُوت».

ومنها [أي علوم الحقيقة]؛ علوم التوحيد وتجريده، والتفريد وتوحيده، والتحقق بأسرار أنوار القرآن العظيم، وعلومه، التي هي البحر الطمطام، والدر النظيم، وعجائب، غرائب السنة المحمدية، الشارحة للآيات الأحدية الصمدية.

ومن هذه المراتب الشامخة، تتجلى علوم الوحدة الباذخة، انجلاءً كليًا، وتتضح اتضاحاً جليًا، فلا يرى المُشاهد اختلافاً في الأذواق والمشَاهد، لإشرافه على مجمع

البحرين[١]، وملمع البحرين، وسر الولادتين، والعثور على أسراره مخبوءة. وهذا كان طريق العارفينَ؛ طريق عين، يذهب الرّان، ونهب الغين[٢]، وقد قال الشاذلي الزين: من لم يتمذهب في مذهبنا ولو يومين، مات مصراً على الكبائرِ والشينِ.

إذ طريقهم التخلق العلية، والتنزه عن السمات الدنية وقد صرح الأكابر، أن السير في طريقهم واجب، ولا مكابرة، وأنه لا يسلك إلا على يد خبير به، عارف بمذاهبه، وأن مواهب لا تقاد إلا لأهلها النقاد، وعلى هذا درج السلف، ونهج أثرهم الخَلَف، وأنشدوا:

وما كل يباح مصونه ولا كل ما أملت عيونُ الظبا يروى

وقد شوهد بالعيان، أن التكلم بأسرار الأعيان، يوقع ضعف الأفهام في الإفتان، فحتم كتمان الأسرار عن الأشرار الخوان، لا سيما في مثل هذا الزمان، الذي عمّ فيه النكران، وطمّ ظلام الغفلة الأركان، وعاد فيه الدين المتين غريباً، والقابض فيه على دينه كالقابض على الجمرِ، تهذيباً، واستولى على أهله الميل إلى الشهوات والسهوات، والخوض في الغفوات المتلِفَات.

[التمسك بالسنة النبوية]

فإياك أيها الأخ، ثم إياك، الوقوف في صفوف أُلي الإشراك توقع في إشراك والإصغاء لمقال محتال، على إسقاط التكاليف لدينِه.

تَباكَ واستقم على قدم الاستقامة، وإذا أرادك لما يختاره هيأك، وماذا بعد الحق؟ إلا الضلال، وما بعد قول الله ورسوله إلا المُحَال.

وقد قال سيد الكائنات، وإمام أهل الأرض والسماوات، صلى الله تعالى عليه وسلم، وشرف، وكرم: «**قد تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كبيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم بالطاعة، وإن**

(١) مجمع البحرين: هو حضرة قاب قوسين لاجتماع بحري الوجوب والإمكان فيها، وقيل: هو حضرة جمع الوجود باعتبار اجتماع الأسماء الإلهية والحقائق لكونية فيها. (إصطلاحات صوفية للقاشاني بتحقيقنا).

(٢) الغين: ذهول عن الشهود واحتجاب عنه مع صحة الاعتقاد. قلت (المحقق): الغين: الأغيار: احتجاب العين عن البصيرة بالغين أي الأغيار. (إصطلاحات صوفية للقاشاني بتحقيقنا).

عبداً حبشياً، فإنما المؤمن كالجمل الأَنِف حيثما قيد انقاد»، رواه أحمد وابن ماجة والحاكم عن عرباض.

فمن نهج على هذه المحجة نجا، ووفى بمعرفة الحجة، ومن أراد الزيادة والتخلق بأخلاق السادة، فيتبع السلف، وليترك ابتداع من خلف، وليحسن بربه الظنونَ.

واحذر كل الحذر، أيها الأخ ـ الذي عليه بالإيمان ممنون ـ من الميل إليهم، والركون لما لديهم والسكون، ولا يستخفنك الذين لا يوقنُون.

ولنلخص لك من هذه السطور مجمل طريق السلوك المعمور، بإمداد الغفور، الذي سار عليه أهل الطرائق العرفانية، والرقائق العيانية الإحسانية، لنتحقق بسرد ما حواه، من أطوار حسن الاتباع، من الأتباع الأخيار، ويستبين لك أن القوم الأطْهَار، لم يفارقوا قدماً للسيد السَّند المختار.

[التربية والسير والسلوك]

فنقول: اعلم، أيها الراغب في سلوك طريق المواهب، أن السير فيه، سير باطني، غير محسوس، ويكون أولاً، بالمجاهدةِ في النفوسِ، وقد درج أهل العبور في ميادينه ذات النور، على تخريبِ العادات السيئة، وتهذيب النفس بالرياضَاتِ والعِبَادَات.

وأول ما يأمرون به المريد: التربية، بالتخلية والتحلية، بعد أخذ العهد عليه، أن لا يخالفهم فيما يدعونه من المبرات إليه، وأن يكون عندهم كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف شاء.

وهو مقبل على أمره غير كاسلٍ، يحضون على تصحيح العقيدة، لتكون أعماله بعد صحتها مفيدة، فإن من فسدت عقيدته ـ والعياذ بالله ـ انطمست بصيرته، وضلَّ، وتاه، وكان بناؤه على شفا جرفٍ، هارٍ، ووَاهٍ.

ويحثونه على القيام بالأوامر الشرعية، وترك النواهي التي للشارع مرعية، ثم بعد الاستقامة على الشريعة الغرّاء، يأمره بالأخلاق المرضيّة، سراً وجهراً، وبالذكر الجهري أولاً، ثم الخفي ثانياً، ليتنور به الظاهر والباطن، ويشرق لبه وقلبه، ويستنير من اللطائف المواطن.

وهذا إذا رآه صادقاً في الطلبِ، رغباً في التأدب بآداب أهل المشرب مقبلاً بكله، و[illegible]ه متوهجاً لربه، بذله، فارغاً عن الشواغل والأغيار، مملوءاً بالمآثر

الحميدة، رافضاً للأهل والديار، بتوجه القلب، على حسب الإمكان، راجياً الفتح والإرشاد من الرحيم الرحمٰن.

وفي هذه المدة القريبة، يَسُوقه للمراقي العجيبة، فتشتاقُ الرُوح، وتنساق للسبُوح، وتحن لمعهدها القديم، ومحلها الأرفع الكريم، وهناك، يرقيه، رتبةً فرتبة، واسماً فاسماً، ويفتح له باب الفهم عن الله، بإذن أسْمى، فيعرض كل ما طرق باب قلبه من الإفهام، على الأصلين، فما وافقهم، أخذه، وإلا ضرب الحائِط، بأقدام.

وترقيته، إما بطريق الإشراق، وأوله بطريق المبشرات المانحة الإسعاف، وهذا الحال، حال العباد، أهل الورع، والتوكل، والزهد، والتبتل، والأفعال الصالحة، التي موازينها راجحة.

ثم إذا استقام على النظام - وشمر ساق الاستباق، إلى سارب الاعتباق والاغتباق - يعرفه الأستاذ طريق المراقبة للأنفاس، الحقية، والتعرف إلى الله في الرخاء، ليعرفه في الشدة البرقية.

وفي هذا المقام يلوح له في باطنه، أنوار جذب، بسلاسل قرب لطيفة، ويرى فيه، سراجاً ملكوتياً، يدرك به، ما فيه من علل خفية، فيشفى منها، ويترقى بالتوجه إلى الله عنها، ويستعين على الخلاص والإخلاص بالصبر والصلاة، ولات حين مناص.

ويساعده على فك ما على قلبه من أقفالٍ، عن طريق الخلوات والجلوات، العراض والطوال. وإذا تصفى من كدرات البشرية، والإخلاد إلى أرض الطبيعة النفسانية - ببركة الاتباع للسيد المصطفى، والسند المقتفى ﷺ - تخلص من قيود الموانع الكونية، وتنزه عن القواطع الظلمانية، بصدمات الأنوار الربانية، وأيد بالأنفاس الرحمانيَّة، وأمدّ بِشُرْب الأطواس الإخسَانِيَّة، فقوي بها جأشه، وتمهد بنورها فراشه.

وهنا يدخل دائرة الولاية الصغرى، وهي شهود توحيد الأفعال بلا امتراء، فلا يرى فاعلاً بحال، إلا الخَلاَّق الفَعَّال، وبهذا الشهود، يخلص من ورطة الشرك الخفي، ويدخل ميادين الاصطفاء، مع ممن اصطفى، ويحصل على الموت الاختياري الإرادي، ويحظى بالقُربِ، والشرب، الإسعادي الأمدي.

[اليقين: علم، وعين، وحق]

ولهذا المقام، علم يقين، وعينه، وحقه، وهكذا المقام الذي فوقه، إذ لكل واحد منها، بداية، وتوسط، ونهاية.

* فمن ارتقى فيه إلى درجة علم اليقين، سلم من داء العجب والرياء وأشباههما، بيقين.

* ومن وصل فيه إلى رتبة عين اليقين، دخل الجنة المعجلة، للمتقين.

* ومن جاوزها إلى منزلة حق اليقين، غاب بشهود أفعال الحق عن شهود أفعال المكلفين، ولم ير إلا الفاعل المختار، آناءَ الليلِ وأطْرَاف النهار.

ولهذا الشُهود، رواف ممدود، وأذواق علية، وأتواق جلية، أشار إليها عارف الزمان سيدي أرسلان، قدس الله سره المصان، في رسالته الصافية الأدنان.

ولا تدرك بعض هذه الأذواق إلا بالجِدِّ والاجتهاد، على طريقها المعتاد بالتوجيهات والمنازل القلبية الواسعة، أردان الإمداد، لا بمجرد العلم، فإن الذوق فوقه بدرجات، تعنى وتراد، وتبدو لدى صقال مرآة البصيرة، بالأذكار والأوراد.

وهذا حال الصوفية، أهل المراتب الوفية، المتخلقين بالأخلاق المحمدية، من رضا، وعفاف، وصبر، وكفاف، وغير ذلك من سمات مرضية، مصاحبة لهم كل حين، إلى أن يدركهم، داعي اليقين، وهو الموت الحقيقي، لا المجازي.

[توحيد الأسماء]

أيُهَا الأمين على أسرار الشرع المتين، ثُم بعد هذا التحقق الأسْمَى، ينشقه المربي، عرف توحيد الأسماء، حتى يصطلم تحت أنوارها، ويغيب بلوامع هوامع أطوارها، وإذا طاب وغاب، وامتلأ بأسرارها، منه الوطاب، رأى بحرها كله عجب، وبرها منبت بالأحِبَّا، يَمُها واسع المد، محيط، وبرها شاسع، به الفكر لا يحيط.

وهنا يشاهد كل اسم إلهي، اتصال بالأسماء كلها، فيتعلق بها، فرداً، فرداً، ثم يتحقق كذلك، ليشهد أسرارها تهدي، وله تهدى، ثم يتخلق بها تخلقاً تاماً، فيفهم منها أمراً خاصاً وعاماً، ويعاين مدداً طاماً، وإسعاداً آماً.

وكل من أحصاها ـ أي الأسماء الإلهية بهذا الطريق ـ دخل جنة عرفَانها على التحقيق، ويتجلى له من علومها، ما قدر له بنيله، فلا تقسه، بسجون حالة سيله، ولا يحجبون فراقه ولا نيله، فإن فيض الحق لا يمثل، إذ عطاؤه دائم لا يتحوّل.

وفي هذا المقام يتحقق الواصل بفناء الرسم والاسم؛ الفناء التّام، ويرى غب محو الأفعال، وزوال الرسم، والاسم المنهال، وحدة الفاعل والمسمّى، فيغيب به عنه حتماً، وربما لم يطلق كتماً، فيشدو:

أرى رسمها غنى يعوض عن رسمي   فما بالهم في الحي يدعوني باسمي
إذا ما دعا الداعي بعلوة فأستجيب   ولكن إذا أفنتك عنك على علم

أي إذا فنيت بتجلي الباقي ـ أي الله ـ، عن علم ويقين واقٍ، لم ترَ وجود سِوَاه، إذا هو الذي أبرز الشيء وسَوَّاه، فغاب المشاهد بنوره وخشع، لأن الله تعالى ما تجلّى لشيء إلا خضع، أي فني عنه، وبقي به، مستمداً منه، وهذه دائرة الولاية الوسطى، التي هي للقلادة السلوكية وسطى.

ثم بعد هذا المشهد المصمود، وذوق تجلياته، التي لا يكفيها عقل محدود، يلمح له بالمشهد الصفاتي، ويرشفه كأسها الأصفى في الوقت الحالي، والماضي، والآتي، وينفتح له هنا باب الولوج في عوالم السر، بعد دخوله عوالم القلب المدبر، والروح البريء، ويتسلق إلى حلول طلول، عالم الخفي، والأخفى، بحال وفيّ، وفي كل عالم منها عوالم لا تحصى، وفتق غيوب، جيوب لا تستقصى، وفي هذه الأطوار يبلغ الواصل لها، سافر الأطوار، وربما ينكشف له عن تجلٍّ، مخاطبات الأُنس في حضرات القدس، ويشاهد في محاضر العلا، مناظر الوَلاء والاسْتجلاء، ويأمر فيها بإخفاء ما يظهر من أسْرارٍ وأحوال، لأن علوم هذا المقام غريبة مما لا يقال.

واعلم أن علاقة من تجلّى الحَقّ سبحانه وتَعالَى عليه، بصفة من صفاته؛ أن يدرك به تعالى، ما لتلك الصفة من المحال الرفيعة التي عنها شفه، وأن يدرك ذلك من نفسه، ولا تحقق به في عالم قدسه، فهو صاحب دعوى، لا شهود، وشطح مردُود عليه به، غير معدودٍ، وهذا المدعي ببهتان، كذبته شواهد الامتحان.

وصَاحب هذا المشهد هو الملامتي الفرد، والملاَمتية[1] انفردوا بقلوبهم مع الحق، فلا ينزلون عن عبوديتهم طرفة عين، ولا يدركون للرئاسة طعماً، لاستيلاء الربوبية على قلوبهم، تحققاً وعلماً، لأنهم على صلواتهم دائمون، فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين، جزاء بما كانوا يعملُون.

ثم بعد التحقق في الصفات، نفى عن حبه الآفات، يفتح لطالب الارتقاء، أبواب العطاء، قفل باب مثله لم يفتح، لأن التجلي لا يتكرر، بل هو مُنساب.

---

(١) الملامتية: «هم الأمناء الذين لم يظهر على ظواهرهم مما في بواطنهم أثر البتة وهم أعلا الطائفة (الصوفية) وتلامذتهم يتقلبون في أطوار الرجولية، وسمُّوا بالملامتية لكونهم دائمي الملامة لأنفسهم، فهم مع أنهم أعلا القوم علماً وعملاً وحالاً ومقاماً، فإنهم لا يرون أنفسهم كذلك، فلهذا لا ينفكون عن اللائمة لأنفسهم» (لطائف الإعلام للقاشاني بتحقيقنا).

وبعد التحقق في رتب الفناء التسعة الحلوة الجنا، وذوق مقامات البقاء، والاستقصاء من حوض اللقاء، بلوح، بلوح أروح، شهود، كنز، التوحيد الذاتي، ويثمر أشهاد هذا الكشف، الجامع الهامع، بكل سر موات، نتائج غيبية، لا يلمحها إلا عقل كلي، ولا يترسخها، إلا فهم مستمد من النُّورِ الإلَهي.

وهذه دائرة، الولاية الكُبرى، المسفرة بالعجائب، دُنيا وآخِرة، وهنا بلغت المنُ، فتطيح الإشارات، وتضيق العبارات، وتتضاءل الفهوم، وتتقاصر مطولات العلوم، وتفنى الرسوم بتجلي الحي القيوم، وتأتي العلوم اللدنية، الطرية الجنية، ويكون الأكل من فوق، لا من تحت الأرجل، لتمكن وطوق.

وتعظُم في هذا المقام، الحيرة المحمودة، ويقر صاحبه بالعجْزِ عن المعرفَةِ الكُليةِ، المصمُودَة للذاتِ الإلهيَّة، عن طريق الصفة الثبوتية النفسيَّة، التي الحق تعالى عليها في نَفْسه، إذ العقل لا يدرك بنظره إلا صِفَات السلوب، فيقُول الواصل، الكاشِف عن عذب هذه المراشف، سبحانك ما عرفناك حق معرفتك، عجز الواصفون عن صفتك، وهذا العجز فيه العز، وهذه الحيرة فيها الخيرة.

ومن هنا يقع طير السير، في فخ مير العبودِية المحضة، فلا دعوى، ولا أنا، عند من عرف الله هنا، وحاز الهنا، لمَا بلغ الهنا، فلا تصريح، ولا كنا، ولا شطح يوجب عنا، بل فقر لاذب، وضعف للالتجاء جاذب، وخشية دائمة، ورهبة قائمة، وطرف دامع، وسمع سامع، ولسان ملجم، وجنان مكلم فارغ من الكونين، مملوء بشهود الحق، بلا بين، ولا أين، يرى من العلل الموجبة الخلل، والأمر الجلل، مقيم في سفر، حكيم نظره، ونظر لا يسترقه كون، مستُور في مواقف الصَّون، يستر حاله بمقامه، وَمَقامه بحاله، لا تفي إلبراعات بما أعطيه في نفسه، عرف ربه بربه، فنال كَامل، شَامل، قربه.

[منهج العارفين]

فهذا مجْمَل سير أهل الله العارفين، وملخص ما نبّهوا عليه للطلاب العارفين، وهذا المنهج الأبهج، إذا حققت فيه النظر، لم ترَ ما يخالف نصاً، نوره بهر، بل ما يكسب ارتفاعاً، وانتفاعاً، وانقطاعاً، عن الغير، واجتماعاً بالمقرب، يكشف قناعاً، وإذا عرفت قواعدهم، وما بنوا عليه مقاعدهم، تراهم على التحقيق والإشاعة، من أجَلّ علماء، حكماء أهل السُّنة والجماعة، وإذا جمعتهم في نظرك السعيد في صعيد، لم ترَ فيهم إلا، وليًا حميداً، بل شهيد.

[الأولياء ضنائن الحضرة]

فكيف بعد هذا العَيان، يطلق فهم اللسان، مع أن كلامهم مؤول، ومرامهم عن الشريعة الغراء، لم يتحول، ولا يدرك على الأعقاب، ما تسمعه من زنادقة استحقوا العقاب، فإنهم بريئون منهم، ومن اعتقادهم الفاسد، لا يلحظونهم قط، لاتباعهم الضَّلال الكاسِد.

ولا يتجرأ ذو عقل على معاداة أولياء الله، فإنهم ضنائن حضرته، الذين يغار لهم الله، ولأنهم أهل القباب الصُّوفية، الرافع عنهم الاشتباه، والدافع عنهم بالانتباذ كل لاه.

فالله، الله، أيها الأخ في الله، والمحب لوجه الله، الصَّديق الأوَّاه، إياك، ثم إياك، أن تقع في استنقاص أهل الله، لسماع أقوال من أضلهم الله، وأعمى أبصارهم، فكانوا حِزبَ عدو الله.

[إشهاد]

وإني أُشهِدُكَ أيها الواقف، على ما فاهت به مني الأفواه، أني آمنت بالله، وبما جاء من عند الله، على مراد الله، وآمنت برسول الله، وبما جاء به رسول الله، على مراد رسول الله، وإنَّ كل من خالف كتاب الله وسنّة رسول الله، فإني بريء منه في الدَّارين، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نسأل الله لنا ولإخواننا الاستقامة على طريق الله، إلى أن نلقاه، وهو راضٍ عَنَّا، بجاه محمد ﷺ، ومن والاه.

والله، ثم والله، الذي أعتقده، ثم أدين به، الله، أن أهل الله لو خلفوا رسوله قدماً، ما نالوا شيئاً من الله، إذ هو باب الله، ولو لم يتحقق صدق حبهم، واتباعهم لخيرة الله، لهجرناهم في الله، لله، لكن الذي علمناه، حققناه، ما ذكرناه، والحمد لله، ولا بد إن شاء الله إذا جاء ختم أولياء الله، محمد المهدي بن عبد الله، أن يعلي بذكر أهل الله، ويقمع بسيفه الملاحدة الفجرة، بحول الله، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد الأمين، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، آمين.

صادحة الأزل

تأليف

الشيخ القطب مصطفى بن كمال الدين بن علي البكري

المتوفى ١١٦٢هـ

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وبه ثقتي

نَحمَدُكَ يا مَن مَنَّ عَلى قُلوب العَارِفِينَ بِتَنَزُّلات سَبُوحِيَّة، وَاختَطَفَ عُقُول نَواسيتهم[1]، بِلوامِع بُروقٍ رَوْحِيَّة، واسْتَبْقى حقَائقَ لَواهِيتِهِم، بِجَوامِعِ تَعيناتٍ صَمَدِيَّةٍ، وَرَقى بِهِم إلى مَنارة مَنازِل عَرْشِيَّة، سَطعَ سُلْطانُ جَمالها الأسْنى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ [النجم: ٨، ٩].

وَنُصلّي وَنُسَلِّمُ بِلِسَانِ الغَيْبِ الذَّاتي، مِن مَنْبَعِ مَجْمَع بَحري القِدَم، والحَدَثان والوِجْدان على نُقْطَة دَائِرةِ الطَّي، بالبِشْر الطيّب النَّشْر بَيْنَ أهْلِ العِرْفَان.

مِيمُ المَبْدأ والميعاد، والوَسَط العَالي بالذَّات، المُنقلب عَن الألِفِ، المُنبَسِط إلى عالَم الأشْهَاد، الجَامِع الكلّي بِمَراتِبِ الإصْدَار والإيرَادِ، حَاء حَق الحَمْدِ الرَّحْماني، فِي وَصْلَةِ حم، الشَّفِيع الأسْمَى، بِتَرْبِيع أدْوارِ الأمْدَادِ، مِيمُ مَلكُوت غَايَة التَّالي للمُقدَّم، دَالُ انتهاء تعين الأحَد الصَّمد فِي العَدَدِ المُكرَم.

وَعلى آله وَصَحْبِهِ، وَشِيعته، وَحِزْبِهِ، مَا زخَرَ بَحْرُ الحقيقةِ، مِنْ آدم، شَفع، الوتر، وَفَجَّرَتْ يَنابِيعُ مَدِينَةِ العِلم بالذَّاتِ، من بَابِها العَليّ المُرْتَضى، للقِيَام بِعالَم الخَلْقِ والأمْر، دامت على الأصل الحقِيقي والجَعْلي، فِي مَظْهرِ الفَرْعَيْنِ الحسنين، صَلَوَاتُ الله وَتَسْلِيماته، وتَحيَّاته، وبَرَكَاته.

---

(١) جمع ناسوت وهو: النشأة الإنسانية [الجسدية] (موسوعة مصطلحات التصوف الإسلامي للدكتور رفيق العجم) قلت: والناسوت هيكل الإنسان أو جسمه المادي أو بدنه الحسي، عالم الملك: عالم الشهادة، العالم المحسوس: الظاهر من كل شيء.

أمّا بَعْدُ، فَلَمّا لَمع مَنْ تِلْقَاءِ شَجَرَة الوَادِي المُقدّس، بَارق التَوْحِيد، وَسَطَعَ لي مِنْ خلالِ أفْنَانِ سَرِحَة شَاطىءِ البُقْعَةِ المُبَارَكَةِ، نِيّرُ التَفْرِيْد، والتَاحَ قَلْبِي، مِنْ بِطْنَانِ العرشِ الإحَاطِي، سَبَحَات الجَمَال، وَارتاح سِرّي، بِمُعايَنَةِ النُور الأقْدس، من معاناة الصور والأشْكَال واستدارت على مناطق بواطن الوُجُود الذّاتِي، فِي عَالم مَعَاهد الأسْمَاءِ، واستنارَتْ لذي دياجِي، غُيُوب الصِّفَات، مِن مَشَارِقِ مشَاهِد المسَمى، وَتَعَدَّلت في تَرْكِيبِ كلمَاتِي، مِنْ حروف هجائِي، هَيَاكل الحَقِيقَة، وحُزْتُ لما حزتُ، مَا حزتُ فِي أمْرِهِ، مِمّا وَرَاء عَالَمَي الأمْرَ والخَلِيْقَة.

وشَعْشَعَتْ لِي أنوار الاصْطِلام، لألأ المدام، وَرنَتْ بِي، وَمِني ألْسُن التَغَنّي، بِفُنونِ الأنْغَام، واستهلت مُزّتي[1]، مِن فَيَضَانِ غَيْبِي اللّدُنّي، فَكُلّلَتْ تِيْجَانُ رَبَوَات المعَارِفِ، بأبْهَى دُرَرِ النّظَام، وحيى مَفِيض، وَبلى، وَطلى من فَرْعِي وأصْلِي، بِتَنزلِ جَمْع شَمْلي، فِي أفرادِ مِثْلي وَشَكْلِي، لما جَاءَ في ظُلَلِ مِنَ الغَمَام، ونُفِخَت لي أزاهِير جَنّات إلَهيات، بِأعْطَرِ من أرج المِسْكِ والعَنْبَرِ، وَهَبّت بِأعْطَرِ الأنْفَاسِ، وأنفس الأعْطَارِ، تَوَافِحُ الخُزَامى[2] والعَبْهرِ[3].

قُلْتُ: مَا البارِق المضيء وَمَا نَفْحَةُ هذَا العَبِير فِي الجِناتِ.

قيل: سَلْمَى آتتْكَ وَهِي ضَحُوك، للتداني.

فَقُلْتُ: طَابَتْ حَيَاتِي.

وبينا، أنا في جلاء كؤوس، واجتبلاء عروس، وإسْفَار وَجْه حقيقة، طَالَما تبرقع، وميلهِ ميل عطف عطف، طالما تمتع، وهديرِ حمائمِ، وخرير غمائم، وجريان نمير، وسيلان غدير، ويم وزبرِ[4] في روض نضير، تسيبُ لي رياح المسرات بأفانيها، وتلحن لي حمائم الأفراح بأغاريبها ـ فما شئت من زهر وخمر وشادن ـ تغني فينجلي الحُزْنُ الحِسّيُ.

---

(١) المُزّة: الخمر اللذيذ الطعم (العين للفراهيدي).

(٢) الخُزَامى: نبت طيّب الريح (لسان العرب).

(٣) العَبْهَر: اسم للنرجس ويقال للياسمين (العين للفراهيدي).

(٤) البر: القوي الشديد (لسان العرب).

أسمع المَزْمُور من المُزْمَارِ، وأتلقّى الإشعاعَ من الأوتَارِ، وَأسْتَمْلي المبْتَدأ مِنَ الخَبَرِ، وَأسْتجلي العَينَ من الأثرِ، وَأسْترق مَنَاظِرَ العِرْفَانِ، عَرَائِسَ الحكم، وأسْتَشِفَ مِن سَتَائِرِ الحدثَانِ، سَرَائر القِدَم، وإذا بِي:

أسْمعُ هَاتِفاً مِن جَمِيع جِهَاتي.

وَمُنَادِياً، حَلَّ مِنّي مَحَلَّ ذَاتِي.

يَقُول:

يَا جَليسَ هَذِهِ الرِّيَاضِ..

وَأنِيسَ هَذِهِ الغِيَاض..

والمتمتع بهذه المُخَالساتِ..

فِي هَذِهِ المُجَالَسَات..

مِمَّا تَقصُر عَنهُ المُقَايَسَات..

مِن مَحَاسِنِ المُقَابَسَات.

وَتُرْجمان لسان الأزل، والأبد

وَمعبر آيات الصَّمد، الأحَد.

هَلْ أحطْتَ بِمَنْ اخطت فَوْقَ رُوَاق المَلَكُوت..

مَرَاتِب الجَلاَل..

وَزَيْن عَالم المثال..

بَلْ عَين عَيْبِ الأحْوَال..

بَل ظَهر فِي، لا فِيَّ، حَيْثُ انْقَطَعَ الاتِّصَال.

بَلْ أتَمَّ، ثُمَّ، وِحْدَة التَّجلي.

بَلْ هِيَ عَلَى مَا هِي، فِي قُدْسِ الكَمَال.

قُلْتُ:

اللّهُ أكبَر، إنَّ هَذَا لَهُو القَصَصَ الحَق، هَذا ملك، أستغفرُ الله، هَذا وراء عالَم الخَلْقِ، هَذَا دَهْشَة الألْبَاب، هَذَا حيرةُ الطلاب، هَذَا كَنزُ الله المُطَلْسَم، هَذا بيْتُه المكرَّم، هَذَا سِرُّ السَّرَائِر، هَذَا النور السَّافِر، هَذَا مَغْنَاطِيسُ التَّقديس، هَذا نَفسُ الوُجود النَّفِيس، أيْنَ يُطْلَبُ؟، أمْ هُو لاَ يتأيَن، كَيْفَ يَظْهرُ؟، أمْ يتعين أنْ لا يتعيَّن.

مَا عَهِدنَا طَائِر أفْنَان الجِنَان، يَتَرَنَّمُ بِغَيْرِ مَدَائِحِهِ، بَلْ مَا سَمِعْنَا أن سَوَابغ أغْصَانِ العِرْفَان، تسجَعُ بِسوى صُنوفِ مَنَائِحِهِ:

إنْ لَمَعَ، فَمَا البَرْقُ.

أوْ هَمَعَ[١]، فَمَا الوَرِقُ.

أوْ بَطن، فَمَا سِرُّ السَّرِيْرة.

أوْ ظَهر، فَمَا شَمْسُ الظهِيْرة.

أوْ تَكلَّم، فَمَا الدُّرَرُ.

أوْ هينم[٢]، فَمَا الوَتَرُ.

فَمَا هُوَ إلاّ أنْ وَسَمْتُه بِمَا ذَكَرتُ، وَوَصَفْتُهُ بِمَا سَطَّرتُ، إذًا بالفطمطم الفَيَّاض مِنْ كُهوف العَظَمُوتِ، تَضْطَرِبُ أمْوَاجُهُ، والخَمِيسُ اللهام من جيوش العز، تَتَابعُ أفْوَاجُهُ، وَعَجَائِب المَلَكُوت تَنسَاب انسياب الصلّ[٣]، وَأرْفَعَةُ الملك تُطوى طَيَّ السِّجِلِّ، وبَوَارِق سبَحَات القيُّوم، تَخفِقُ وتَلوحُ، وَأمْلاك الأفْلاك، تقول:

سُبُوح، قُدُوس، رَبُّ المَلائِكَة والرُّوح، وحُمَّ سَحَاب الكتم[٤]، فَتَصَبَّبَ بِغُيُوث الذِّكر، عرقاً، وحُم الأمْرُ، وجَاءَ الحَقُّ، وآن اللقَاءُ، ثُم برزت بتعين التدلّي..

فِي مشارق التجلّي..

صورة تخجل البدور في الأسْفَارِ.

وتبدو لعياني كشفاً بغير استتارِ.

تدخل أنباؤها القلوب منَ إلآذانِ، بِلا اسْتِئْذان.

وتهتف بأوْصَافِهَا أوْتَارُ العِيْدَان، وَحَمَائمُ الأغْصَان.

طلعت، وَلكِنْ بدراً..

---

(١) هَمَعَ: الهَمُوع بفتح الهاء السائل وبالضم السيلان، وقد هَمَعَتْ عينه أي دمعت.. وكذا الطَّل إذا سقط على الشجر ثم سال قيل: همع، وسحاب همع أي ماطر. (مختار الصحاح للرازي).

(٢) هينم: تكلم بصوت خفي، الهيمنة: الصوت الخفي، والهينوم: كلام لا يفهم. (القاموس المحيط).

(٣) الصل: صَلَّ يصلُّ صليلاً: صوّت. (لسان العرب).

(٤) الكتم: سحاب مكتوم: لا رعد فيه (لسان العرب).

وفاضت، وَلكِنْ زهراً . .

وبسمت، فما الحَبَابُ، غير أنَّ الريق سلاف

وخطرت، وَلكن وَقَعَ الاتِّفَاقُ، عَلَى غَيْرةِ أغْصَان الخِلاَف.

أرْدَافها تُخجِل البُدور جَمالاً.

وَتزري بالغصُونِ هزَّة واعْتِدالاً.

تَنفُخ لطائِمُ المسكِ مِنْ أرْدَانِهَا.

وتأخذ النفوس بلطائف معانيها. وبدائع بانها.

قلتُ:

خَلَّدَ الله إشْرَاق شمس الجمال . .

بقاؤك وسلْطَنَةُ الجَلاَلِ، بِارْتِقَائِكِ.

مَنْ أنتِ؟ . .

حتى أُطابِقَ صورة المعرفة، بحقيقة الصفة، وحقيقة الصفة بباطن المعرفة، فلقد بهرني منك، ما لو تجلي على العقول، وكانت المخلوقات كلها عقولا، لم يدع منها سلطانه عُقولاً ولأقام فيها أشوَاق الأشوَاق، كأنَّما سَقَاهَا شُمولاً.

ولَوْلاَكَ، راسلْتُ قلبي بلطائف المؤانَسَةِ.

ولولاك، وانست سري بظرائف المطايبة في المجالسة، لتمزق أديمه، وذات بلسع الهوى سليمة.

قالت:

ومثلك يسأل عني!! وقعت والله في التعني، أما كفاك أن ترى، حتى ترى مستخبراً، ماذا تريد؟، بعدما صرت لحسني مبصراً، إنما كان حقك السكون والسكوت، والرغبة في المحو بالثبوت، والاسترسال مع ما يأتيك مني، [illegible] بجمالي عَنك، أو بِغَرَامِكَ عنِّي، ولَكِن . .

- أنَا الحاكمة الكُبْرَى.
- أنَا مالكة زمام الدُّنيا والآخِرَةِ.
- أنَا ريحانة رياض الألوهية، وحمامة أفْنَانِ الصمديَّة.
- أنَا لطيفة اللطائف، ومعرفة النكرات، ونكرة المعارف.

● أنا الممدة، فلا ينتهي فيضاني، والقائلة، فلا يكل لساني.

● أنا بحبوحة العرض الإنساني، وفذلكة التعين الرحماني.

● أنا هاتفة غصن: **«كان الله ولا شيء معه»**[(١)]، وكاشفة: وهو الآن على ما عليه كان.

● أنا بارقة: كنه الأمر في الخلق، وشارقة شمس أنوار الحق، من مشارق الأكوان.

● أنا نفثة صدد الأزل، وبَثَّة ضَمِيرِهِ. وحدقةُ نُور القِدم ومشكاةُ ظهورِهِ.

● أنا رسول الشريعة الذاتية، وحامل أمَانة الحضرة الفردانية.

● أنا السرير المصون بالأنوار، والغيب المكنون في الأسرار.

● أنا فاتقة الأرتاق، بلطائف سبوحيتي، وسابقة السباق، بحقائق أحديتي، بل بدايتي غاية أغراض المتواجهين إلى حضرتي.

● أنا ميم الملكوت، وهاء هوية العظموت، وتاء تمام حروف اللاهوت وكلتا يديه عين في إشارات الناسوت، وميم الملك. ونور بحار الفلك، بها فلك.

● فأنا المهيمن الأكبر، والمحيط الأبهر

كما، كم دارة جمال، سطع فيها سلطاني

وهالة جمال، بهر منها شاني

وحقيقة مقدسة، قامت بتنزلاتي

وصورة مكرمة، بهرت بتمثلاتي

ومظهر وجداني، تعين بإشراقي

وظهور فرداني، أخذت عليه ميثاقي

وفيض صمداني، أمده كوثري

وشهود عيني، غيبي، انطبع بمرآة بصري

وروض فتحت يَدُ وتربيتي، أزهار شفعة

وَاغرَوْرَقَتْ أحداقُ حَدَائِقِهِ، بها طل مَدِدي، وهمعة

---

(١) هذا الحديث سبق تخريجه.

وَجَنة، قصرَت مَقَاصيرها[1]، على فرَائد جِسَانِي

وجليت بقصورها، عَرَائس حوري وولداني

ولطف معنوي، سكرت فيه أنفَاسِي

وكلمة درية، نظمهَا سلكِي

وحكم دخل، رقيقها ملكي

وبيت معمور بسريان سري

وأفق مشرق، يلألىء بدري

الله أكبر، حارت في الأذهان والفكر، وحارت عن إدراك كنهي، القوى والقدر، وسجدت جباه المعارف لبرزتي، وشهدت أعداد التعينات بوحدتي.

إذ هبطتُ، قال البهموت: أنا الأثير الأصعد، أو علوت، قال الأثير: أنا البهموت الأبعد جهاتي واحدة بالنوع، مختلِفة الشخص، وطاعة الوجود لأمري فوق العنان، للوكف[2] والبنان المكف، والمستدل للنص، والظل للشخص، أزسِمُ حتى تتقاصر عني الحد المطلوب، وأقضي فأوجب السلب، وأسلب الوجوب. شعر:

وأرى الناس مجمعين على فضلي ... ما بين طارق وتليد

عرف العارفون نوري بالكشف ... وأهل الأهواء بالتقليد

أنا تقويم عالم الخلق والأمر ... وسر التعديد والتوحيد

أنا من تنطق الحقائق عني ... بلسان التقديس والتمجيد

أنا سلكٌ به داري المعاني ... في انتظام كلؤلؤ منضد

ورفت سرحتي بأوفر ظل ... صمودي على الورى ممدود

ورقت همتي وراقت لقومي ... وأدارت بحوضي المورود

وتعالى بأحمد الخلق قدري ... لمقام مقدس محمود

وتجلت شمسي على طور نفسي ... جمال شهدته في وجودي

هو أصل وفرع أصل ولكن ... بسقت لي به غصون الجدودي

---

(١) المقاصير: جمع مقصورة وهي الدار الواسعة (لسان العرب).

(٢) الوكف: القطر، وكف الماء يكف وكفاً/ ووكف البيت مثل الجناح يكون عليه الكنيف/ والوكف: النطع/ والوكف: العيب. (والنِّطع: بساط من الأديم) (لسان العرب).

الله أكبر، ما من علم إلا وأنا ممدة رواته، وحامل راياته، ومبدأ فيوضاته، ونهاية غاياته، وإن أردت أنْ تأخُذَ عَنّي، فَسَل مِني.

قُلْتُ:

قضى يعقوب حوجاه، وبلغ السيل رباه، وتقاذفت درر البحر بسيفه، وقطع الظفر عنق العوائق بسيفه، شعر:

من لي بمن يخبر الأنام بما بلعنيه القضاء والقدر

أصبح قلبي لفرط وصلته بيت شهود تتلى به السور

يا له من نعمة!، تستقل عندها عظمة أرباب التيجان، ويقصر عن مبادي شُكرها، الملوان، ويحدث عنها بلسان الأبدية، الأطيان، ويستضيء بنورها من مشارق الأزلية، القمران، ويتعمر من فيوضاتها الصمدية، العُمران.

من أين أنْ تبرز دُمية فَخر الأزَل؟، تتبختر في غلائل الغزل، ناشرة علي لآلىء شُهودها، ناثرة لديَّ لآلي عُقودها، تبعث وهي الحليمة، ما يبعث بعقلي من شُمُول كلامها، وتدبر على ما بجمع، تفرقة قلبي، عن غير ربي كؤوس مدامها.

بَيْدَ أنّهَا الغَيْبُ، وإن شقت الجيب، واليقْين، وإن حصل فيها لأهل الأهواء الريب، والنور، وإن دجا ليل أسْرارها، والمجْرد، وإن المزيد من آثارِهَا، عجب من عجائب البر والبحر، ونوع فرد، وشكل غريب.

كم كامل أرسل في تأملها، جواد فكر، فَكَرَّ على عقبيه راجعاً، وعارف بالأصل وفروعه، فزعه عزها فظل في مجاهل الحيرة هالعاً، وفيلسوف ظن ما ظن على مصغية عقله نباهاً، فنبا حُسام نَظره وما قطع، ومتطاول إلى الأوج يقتحم العقاب مع الفوج، زلّ عنها قدمه ـ قدم إقدامه فوقع.

هي أمر الله، ولكن أسجد لتجلياته الجباه، وسره، ولكن أودعه من اصْطفَاه، ونور المشرق من مشكاة الصور، وروحه الساري في مساري الفطر، وفريدة حضرته، المؤتمرة على مملكة الوجوب والإمكان، تقوم لهذه بالبرهان، وفي هذه بالعيان، تترامى إليها قلاص الأشباح من كل فج عميق، وتطوف أشخاص الحدوث بيتها العتيق، مخطوبة القبليات النورانية، وعروس منصات الفاعليات الربانية، جلت أن تكتنهها عقول، عقلها الوهم، وعزت أن تحيط بها نفوس، حصرها الفهم، وتقدست عن وفاء المثل بحقيقتها، وتنزهت عن قيام الأوضاع بحق قوميتها.

هي بحر، ولكن ضاق نطاق الأقطار عن فيضانه، ونهر، شق جيوب القلوب، وملأ أودية الغيوب بنورانه، وروض، ولكن عطر، فعطل أنفاس الحور في الجنان، والعرف الساري في الرفارف، والعبقري الحسان.

ولقد ظننت ـ وأستغفر الله لهذه الحضرة من تطرق الظن إليها ـ كيف وهي لو تصور اليقين ما زاد عليها!، إن بارقة من سواقط ذلك الروض لا يقصد شميمها، ولا يتنسم نسيمها، لو نفحت على أناف من عقدوا أنف الأنفة على السها وأصبحوا وإلى أغتابهم المنتهى، لتركتهم سكارى، وغادرتهم حيارى.

فما الظنُّ:

بزهرات صينت عن النواظر، في المناظرِ..

وأعدت لأكابر الأعيان، وأعيان الأكابرِ.

من كل نافحة هي هيولى نوافح الأعطار..

ورائمة آتية بالعبير في كافة البلاد والأفكارِ.

منزهة عن التماس الطالبين..

ومقدسة عن استلام الراغبين.

إنما يشتَمُّها مَنْ منَّ التعين الذاتي به عليه، وصار لا دال ولا مدلول، إلا وهو منه وإليه، وحدانيُ الجَمْع، بل هو على هويتِهِ، مُحَال بَلْ مُحَال..

كَيْف!..

والجمع لسان التثنية التي تقدس عنها الواحد، وإنْ تعددت الأشكال، على أن ذلك الروض، ما نسجت بروده، غير أنامل غمائم الغيب، ولا فرقت مطارفه، غير أيادي نسائم شققت عن الكمائم الجيب، ترمقه العيون، فكل باصرة ترى على مقدار جلائها، وتلحظه اللواحظ، فكل تشبهه على حسب صفاتها، وعلى وزان نظرها تستعيد وصفاً، وعلى نسبة ملاحظتها تستفيد كشفاً.

وربما كان الناظر بما استفاد منها وتلقاه عنها إليها بها ناظراً، وبعينها بعينها باصراً، فيتفاعلان بألطف من المدام بالمزاج، حتى كأنهما واحد في المزاج. ولن يزال ذلك يزداد، ويزدان، حتى يصير القابل فاعلاً حكيماً، تنفعل به كافة الأعيان، من كل مستعد للروح، وسريانها، متهيىء لأسرار النفس الرحماني في فيضانها، وقابلاً لاجتلاء ذاك الجمال، واجتناء ثمرات الوصال، ومترشح لاشتمام ذاك النفس الذي نفخ، ومتوشح باشتمال برود المواهب والمنح.

لكن، لا تنزل من غمائم المواهب قطرة مدد، إلا بإذن وارد من قابوس الحضرة، وافد من لدن الأمر الإلهي لأهل الجمع، الذين لهم بالفرق بين الواردات أتم خبرة، ثم ذلك الإذن على أقسام:

ـ الواقع أولياً في الغالب لمة ملكية بالقلب النوراني، تنفث في الروع الإنساني.

ـ وثانياً سماع هاتف في وجوده، أو لوجوده منه له يكلم، وعليه يهيتم ويترجم.

ـ وثالثاً المرتبة الكبرى التي هي بالتقدم أحرى، وإليها تنتهي همم الرجال، وهي سدرة منتهى إجمال الأحوال، وذلك أن لا يتقيد العارف بصورة في الإذن خاصة، وربما كان ينطق بعض الكائنات، ولو من أغضائه، وربما سمع من جهة، وربما من جميع الجهات ـ على حسب ارتقائه ـ وربما كان ذلك بمشافهة بعض الملائكة الكرام، والتلاقي مع تعينات بعض المرسلين عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام، وربما كان يثلج صدره، ويشرح قلبه، ويفسح سره.

وحاصل الأمر، أنه يُخلق له بالإذن الإلهي، علم ضروري لا تنضبط أسبابه، لأنه العارف الذي اتسع للتنزل الرحماني وانفهق بينه وبين الله بابه. بل ربما أخذ هذا الإنسان شبهة بينة عن الأكوان، ورَقدة حسية عن الأعيان، فلا يشعر إلا وقد أشرق النور، وارتفعت الستور، وأذهَبَ سلطان الصباح عساكر الديجور، ومزقت الغواشي، وقضى ناموس العظمة على الأغيان بالتلاشي، واهتَزَّ عَرشُ الإنسانية ثم انقَضَت دعائمه، ثم انقضت مراسمه، حتى لم يبقَ من الإنسان إلا ما كان يوم ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] أو حكم «خلق آدم على صورة الرحمٰن»، ثم ينصب عرش الجبروت، ويحضر خدام العظموت، وتضطرب بحارُ الجلال وتتلاطم أمواج المعية الشبحانية بعزة الملك المتعالي ويتجلى الله سبحانه وتعالى عن المثال، ويسمع به عبده منه الإذن الصريح، ويظهر له الشأن العظيم الشان ويتيه، فإذا أفاقَ لم تفارقه صبغة ذلك النور، بل يبقى معه لوائح البطون في الظهور.

ولنرجع إلى ما سبقت له هذه الرسالة، وغلقت لمراسمه هذه الدلالة، وذلك إجابة رسول صون العلوم الإنسانية عن مسألة، تدلت له في حقائق ما بطن منها، رفاف العبارة عنها، فيفيق بأمر الله في خلق الله حاكماً، وبأسرار شريعة مورثه ﷺ عالماً حاكماً مبنياً على قواعد التجلي الذاتي أساسه، وعلماً مشرقاً بنور الاختصاص

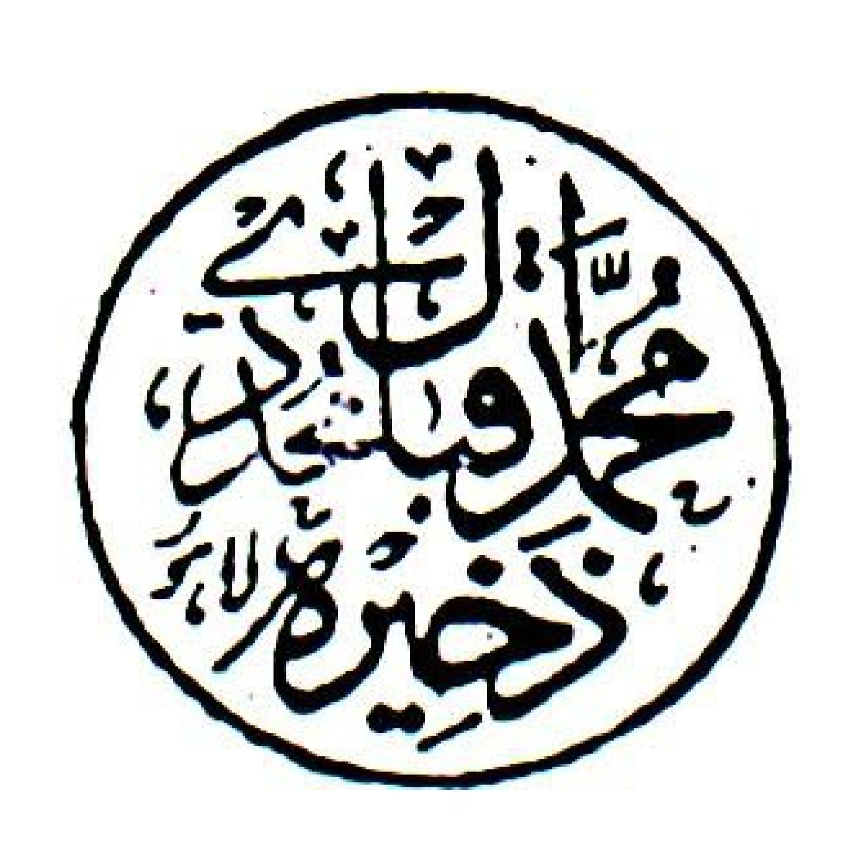
الصمداني نبراسه، سالماً بالله تعالى من شوائب الابتداع، فإن الله تعالى جعل الميزان الأعظم لكل عارف، وما سواها بالنسبة إلى حقيقة هداها، إنما هو لوامع الزخارف، والمتجلي بالله تعالى، منغمس في بحار الجمع، فالله سبحانه وتعالى له البصر والسمع، كما شهد به الحديث[1]، ودل به القديم على الحديث.

وإلى الله يرجع الأمر كله مجمله ومفصله، وصلى الله على من تحقق بالنور الأعظم، في أشرف منزلة، فكان يمشي ولا ظل له، محمد، وآله وأصحابه، آمين.

تمت بحمد الله

(١) والحديث هو كما رواه البخاري في صحيحه، باب التواضع، حديث رقم (٦١٣٦) [٥/ ٢٣٨٤] عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته».

فهرس المحتويات





نقدّم للقرّاء الكرام مصدراً من مصادر التصوف الإسلامي هو «تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية» للإمام الحافظ الشيخ أبي الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هجرية. هدف من خلاله إلى إظهار التصوُّف الحقيقي وكشف الشوائب التي أدخلها الدخلاء والأدعياء. فقال: «اعلم أن التصوُّف في نفسه علم شريف رفيع قدره سني أمره، لم تزل أئمة الإسلام يرفعون مناره... ويعظّمون أصحابه، ويعتقدون أربابه، فإنهم أولياء الله وخاصته من خلقه بعد أنبيائه ورُسله، غير أنه دخل فيهم قديماً وحديثاً دخيل تشبّهوا بهم وليسوا منهم، وتكلموا بغير علم وتحقيق، فزلُّوا وضلُّوا وأضلُّوا... فأدى ذلك إلى إساءة الظن بالجمع، وقد نبّه المعتبرون منهم على هذا الخطب الجليل ونصُّوا على أن هذه الأمور السيئة من ذلك الدخيل...». ففي هذا الكتاب ستظهر محاسن التصوُّف وحقائقه، وأقوال أئمة الدين فيه، وبيان نشأته، وسبب تسميته، وذكر سنده متسلسلاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبيان ضوابط السماع، وشرح الشطحات الصوفية، وغير ذلك من آداب قلبية ملكوتية، وأنوار روحية جبروتية.

هذا وإتماماً للفائدة أضفنا للكتاب رسالتين جليلتين في بيان بعض الحقائق والمعارف الصوفية للشيخ العارف بالله القطب مصطفى البكري قدّس سرّه المتوفى سنة ١١٦٢ هجرية، الأولى: (المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود) والثانية: (صادحة الأزل).





تأييد الحقيقة العلية وتشييد الطريقة الشاذلية

للإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي

المتوفى ٩١١ هـ





ويليه

رسالتان للشيخ مصطفى البكري

المتوفى ١١٦٢ هـ

الرسالة الأولى:

المورد العذب لذوي الورود في كشف معنى وحدة الوجود

الرسالة الثانية:

صادحة الأزل

تحقيق وتخريج وتعليق

الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي

الحسيني الشاذلي الدرقاوي

